صَهيلُ الكَلِمات

مَقالات أدَبِيَّة وفكُرِيَّة

تأليف: حَاتم إبرَاهيم سَلامَة

صهيل الكلمات

تأليف

حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة

الكلمة في أصلها العتيق لم تكن مجرد حروف تتراصف على السطور، أو أصواتاً عابرة تتبدد في الهواء، بل كانت ولا تزال هي الجوهر الخالد الذي بُنيت على أساسه الحضارات، وعليها توقفت مسيرة الأمم بين صعود وافول. فالكلمة الطيبة والموقف الفكري الرصين هما النبراس الذي يضيء دروب الحيارى، والمرآة الصادقة التي تنعكس من خلالها ملامح الوعي الإنساني بكل تحولاته وعمق أبعاده. وفي زحمة هذا العالم المتسارع، وصخبه الذي لا ينقطع، تبرز الحاجة الملحة دائماً للوقوف متأملين، والعودة إلى رحاب الفكر الواعي والأدب الهادف الذي يخاطب العقول والقلوب معاً، ليعيد ترتيب الفوضى التي تكتنف الوجدان.

بين أيدي القارئ الكريم هذا السفر الجديد، الذي أسميته "صهيل الكلمات"، محاولين من خلاله أن نحاكي ذلك الصوت القوي النقي الذي ينطلق من أعماق الضمير الإنساني ليعلن حضوره بقوة وثبات، تماماً كما يصدح صهيل الأصيل في ميدان الفصاحة والبيان. لقد جُمعت بين دفتي هذا الكتاب باقة مختارة من المقالات الثقافية والفكرية والأدبية، التي نبتت رويداً رويداً في حقول التأمل العميق، وسقتها تجارب الحياة

اليومية، وقراءات العقل المستفيضة في شؤون الإنسان والمجتمع وتاريخ الفكر البشري. لم تكن هذه السطور المكتوبة سوى محاولة جادة ومخلصة لإمساك جمرة الفكرة الهاربة، وإعادة صياغتها بمداد الصدق والوعي، لعلها تضيء نافذة صغيرة للتدبر، أو تحرك ساكناً في عقل يبحث عن الحقيقة وسط ركام الغفلة والسطحية التي تغرق فيها وسائل التعبير المعاصرة.

إن القارئ المتأمل لسطور هذا الكتاب سيلحظ بوضوح ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين هموم الواقع المعيش وإشراقات الفكر الإنساني الخالد. فالمقال الأدبي والفكري ليس ترفاً ذهبياً يُقصد لذاته، بل هو التزام أخلاقي وإنساني يعبر عن نبض المجتمعات، ويلامس قضاياها الكبرى والصغرى على حد سواء. ولقد سعينا بكل ما أوتينا من أدوات التعبير والبيان أن ننحاز إلى جانب الجمال، والعدالة الفكرية، والأصالة الممزوجة بروح العصر ومتطلباته، عسى أن تجد العقول المتاحة في هذه الصفحات ما يثري زادها المعرفي، وتجد القلوب ما يروي ظمأها ويلامس شغافها بندوية الكلمة الصادقة.

إننا نعيش في عصر تكالبت فيه المعلومات وتكاثرت، لكنها في كثير من الأحيان افتقرت إلى الروح والعمق والغاية النبيلة. من هنا جاءت أهمية العودة إلى التأسيس الأصيل للكتابة كرسالة واعية ومسؤولة، لا تكتب لمجرد الملء أو الاستهلاك العابر، بل تكتب لتترك أثراً باقياً في النفس والوجدان. هذه المقالات هي ثمرة ساعات طويلة من الخلوة مع الفكرة، والنقاش الصامت مع الذات ومع تراثنا الإنساني العظيم، في محاولة لتقديم زبدة التجربة وقصارة الفهم للقارئ العربي الذي لا يزال يترقب الكلمة الهادفة المضيئة.

فليكن هذا الكتاب رفيقاً لكل باحث عن الحقيقة، ولكل محب للغة الضاد وجمالياتها، ولكل عقل يحاول أن يجد له موطئ قدم في عالم يغلي بالمتغيرات.

حاتم إبراهيم سلامة

سنجرج- منوف

٢٦-٧-٢٠٢٦

اتهام بالسرقة

إنك تدعي الشجاعة، وتدعي صفاء النفس وجلد الوجدان.. تزعم أنك ترحب بكل نقد يوجه إليك، وتحاول زيفا أن تبتسم أمام الناس لتريهم من نفسك أنك آية في قبول النقد واحترام المخالف، لكنني مؤمن أنك تشتعل من الداخل، وتتمنى لو تتاح لك الظروف أن تنصب مقصلة تقطع بها أدمغة المنتقدين.

النفس جبلت على حب من يمدحها ويطريها، وجبلت كذلك بغض من ينقدها ويحط منها.

أما أنت فقد يدفعك الغضب يوما أن ترد على من ينتقدك، لا بنقد مماثل، وإنما بتحطيم هائل، وعاصفة جارفة، لأنه تجرأ على نقدك والحط منك.

وتتوسع الخصومة، وتتمادى العداوة، ليدخل معها المساس بالنفوس والتعريض بالذات، لتخرج المعركة من حيز الفكر والأدب، إلى عرين العداوة الشخصية.

ثم يخلف غضبك ثورة هائلة، وأغلاط فاضحة، وتنطلق غباءات مدادك من سن قلمك، بالطعون الهائجة، التي تجرح بها خصومك، فتعكر النفوس، وتفسد الصدور، وتمحو منها أي بصيص للصفاء، الذي حل محله الكدر والكره، وتصعب معه أي عودة بعد أن تقطعت كل أواصرها.. وتأتي ساعة الندم بعد أن تهدأ النفس وتخمد ثورة غضبها، ولكن لا سبيل لرأب الصدع.

كان هذا هو حال المازني حينما انتقده صديقه عبد الرحمن شكري واتهمه بالسرقة في الشعر وأنه طبع ديوانه وبه أشعار مترجمة، نسي أن ينسبها لأصحابها، ووجد الشامتون نقد شكري فرصة للنيل من المازني، الذي أزعجه هذا النقد كثيرا فانبرى يهاجم صديقه بأعنف وأقسى هجوم.!

فرماه بالجهل فلا هو كاتب ولا هو شاعر، ثم هو يقترب من الجنون، لقد أثر هذا الهجوم على نفس شكري، وإذا كان موقفه قد اندفع من قِبل المسؤولية والأمانة الأدبية، إلا أن الجراح والألم الذي خلفة نقد المازني، قد دفعه ليهجر الكتابة والأدب عمرا طويلا وهو في أوج عطائه وزهو مواهبه.

١٧ عاما هجر فيها دنيا الكتابة والأدب، متأثرا بنقد صديقه المازني الذي سرعان ما تألم لما صنع، فأخذ يستجدي شكري ويستسمحه، ويثني عليه، ولكن لا مجيب، فكما يقولون:

جراحات السنان لها التئام**ولا يلتام ما جرح اللسان

ولعل القلم هنا كان بريد اللسان

يقول المازني:" ولقد تنمرت له وغدرت به، ولكني والله ما كرهته ولا انطويت له في أحلك ساعات النقمة، إلا على الود والإكبار"
إن غدرة الصديق لا تشفى مرارتها، وتكون في وخز القلب أعمق أثرا وأفدح شعورا.

الأدب والفن في مواجهة الفقر

منذ فترة شرفت بمناقشة رواية تحت عنوان (هوه مين الحرامي) للأديب النابه معتوق سرور، معتوق سرور واستلفت نظري في ثنايا الرواية، مشهدين من مشاهد انكسار الرجولة، والرجولة لا يكسرها مثل الفقر والعوز، فيمكن للرجل أن يبكي لأي شيء ويقبل منه ذلك ويحمد عليه، إلا أن بكاءه من أجل الفقر والاحتياج صورة مرة تفتك بالقلوب وتهز الوجدان
رجل يبكي من أجل الفقر والاحتياج؟ ياله من مرار!
كان ما قرأته في هذه الرواية مصادفة عجيبة للحال الذي نمر به اليوم، ويبدو أن مشهد انكسار الرجولة وبكاء الرجال من أجل الفقر لن يكون عزيزا في هذه الحقبة، ويمكن بكل سهولة أن نرى من يبكي لأنه لا يستطيع إطعام أولاده أو كسوتهم أو علاجهم.
بل جاء ما قرأته في هذه الرواية مصادفة عجيبة مع ما قرأته من أحداث وأنا أتباع المشهد الأدبي والثقافي على الساحة الأدبية، فإذا بي أجد

صديقين من كبار الكتاب يغمزون الفقر والغلاء بأقلامهم.. مما جعلني أتعجب من هذه المواءمات، ولكن لم العجب والأديب مرآة صادقة لواقع الحياة وبلاء المجتمع؟!

كان الأول هو الصديق الدكتور سليمان شعيب د.سليمان جادو شعيب والذي كتب مقالا طريفا بعنوان موجة الغلاء وجنون الأسعار إلى أين؟ استهله بتلك المقاربة الطريقة عن جنون الطماطم، وأن كل السلع من الخضروات والفاكهة واللحوم والأسماك والدواجن قد عرفت طريقها للجنون وشاركت فيه الطماطم التي لم تعد تتمتع أو تستأثر بالجنون وحدها. أما الدهشة الكبرى في الأديب أشرف الخمايسي الذي ركب المترو أثناء ذهابه للعمل، وأخذ يفكر ويتأمل حالة طبق البيض وما وصل إليه وقال:

"هل يأتي اليوم الذي يصير فيه بيض الدجاج طعاما للأثرياء فقط؟

حتى قبل أسابيع قليلة لم يكن متصورا أن سؤالا كهذا يمكن طرحه، ولو سئل لعد سؤالا غرائبيا ذي طبيعة سفسطائية، فعلى طول الزمان، بمرور الدهور والعصور، ومذ عرف الإنسان إمكانية تناول بيض الدجاج، كان البيض أبسط أطعمة الناس متوسطي الثراء والفقراء، بيد أن، وقبل أسابيع قليلة، أصبح شراء طبق بيض مشكلة حقيقية معضلة، ومشكلة مأساوية في طريقها للتفاقم، فلا دالة في مجال الرؤية تشير إلى إن البيض سيتوافر، بل المرئي بوضوح هو العكس"

ولم ينقض من الوقت كثيرا حتى رأينا الفن نفسه في مواجهة الفقر والغلاء، واستغلال الذكاء في النصب والاحتيال، حينما أدهشنا مجموعة من الفنانين بتجسيد هيكل لمقبرة فرعونية طبق الأصل، ونسخة بالكربون، مع تزييف بعض التماثيل والاكسسوارات، مما جعل الناس يحتارون فيما رأوا وشاهدوا، ودفعتهم القدرة الفنية الهائلة، ان يتجاوزوا مسألة النصب والاحتيال، ويعترفوا بمهارة الفنانين، والانبهار بهذا الابتكار في استغلال الفن بهذه الصورة الاحتيالية التي لا يمكن أن ترد على ذهن الشيطان نفسه.

لكن الجميع غاب عنه أن الفقر يقود للجنون.. والجنون فنون كما يقولون.

ومع الأيام القامة سوف نرى كثيرا من المدهشات والأعاجيب، تحت نير الفقر وسيف الاحتياج، فالحاجة أم الاختراع..

بقي أن أشير أنني من قرية ريفية من قرى المنوفية، التي أخذت تتفشى فيها سرقة الماشية بصورة متكررة، لكنني أقول طالما أن الأمر لم يصل بعد لقتل الارواح، فما زلنا بخير.. يارب سلم سلم.

الأديب الإنسان

انتقدت كثيرا طه حسين، ولي موقف عنيف مع أفكاره وطرحه ورؤاه.

كتبت كثيرا في نقده حتى ظنني الناس أنني عدو له أو مسلط عليه، ولا يعلمون أو يتخيلون أنني لا أطلب إلا الحق.

بل عدني بعض السطحيين الجاهلين أنني من هذه الفئة التي تهدم الرموز ولا شأن ولا شغل لها في الحياة إلا البحث عن قبائح الناس وهناتهم وإبرازها والترويج لها، وليس على هذا تربيت أو شببت، فما ترعرعت عليه يأبى علي إلا أن أكون جنديا للحق وللحق وحده.

ورغم نكراني على العميد كثيرا من الأفكار، إلا أنني دوما أعترف وأقرر وأكتب بأنني لم أقرأ ولم أعرف أديبا بلغ الإنسانية العالية كما بلغ طه حسين.

كان إنسانا بمعنى الكلمة، خيرا بمعنى الكلمة، لا يتوانى أبدا عن نجدة ضعيف أو تقديم العون لمحتاج، ولعلها صفة ربما نراها في غيره، فلِم العجب إذن ولِم الإشادة؟

والجواب: إن إحسان طه حسين شمل محبيه ومنتقديه، أو كان يمتد لخصومه ومعانديه الذين صبوا عليه من لهيب عداوتهم ما لا تتحمله الجبال وتلك إن دلت فتدل على نفسية رجل عظيم ونفس سامية.

ومع أني كتبت فصولا كثيرة في مدحة والثناء عليه في مواقفه الإنسانية، إلا أن الناس لا يتذكرون ذلك، ولا يرون في إلا أنني عدو له، كاره لاسمه وأثره، والأمر لا يصل أبدا إلى حد العداء والكره، وإنما هو فكر ورأي أبدي نظري ورأيي فيه.

حتى أنني ألفت مؤخرًا كتابًا يحمل عنوان تعلمت من هؤلاء، وذكرت في مقدمته طه حسين وما تعلمت منه من مواقفه الإنسانية الكريمة.

ومن العجيب مع هذا الرجل أنني كلما توغلت في حياته وقرأت عنه تثبت لي المشاهد والمواقف الإنسانية الجديدة التي أكتشفها فيه، خاصة مع خصومه والذين لم تكن خصومته معهم أي خصومة، وإنما كانت خصومة عنيفة شديدة مؤلمة له وجارحة لمشاعره.

ذكرت فيما سبق كيف كان موقفه حينما علم بدخول بنت الرافعي الجامعة، فطالب مجلس الجامعة أن يقرر لها المجانية كرامة لأبيها، وهدد أن الجامعة إذا لم توافق فسوف يكون الانفاق عليها من ماله الخاص، والمذهل في المر أن هذه الفتاة بنت من؟ إنها بنت الرافعي الذي لا يوجد رجل على ظهر هذه الأرض أزعجه وأهانه ووصفة بأشد الصفات كما وصفه الرافعي، ومع هذا يعفو ويصفح وينسى ويدافع عن ابنته الطالبة.

وانظر مؤخرًا حينما كتبت عن المازني وكيف سولت له نفسه وهو يرد على طه حسين في بعض نقداته الأدبية أن يلجأ ويعرض بعلة الرجل، ويعيره بعماه، نعم لقد جرته المعركة مع الدكتور (طه حسين) أن يعيره بعلته، ويذكر له بالفم الصريح والتعبير القبيح، أنه أعمى، بل لم يذكرها مرة عابرة، وإنما كررها وأمعن فيها إلى حد مستغرب يثير النكران.

ففي كتابه (قبض الريح) ينقد أسلوب الدكتور طه نقدًا أدبيًا، ثم يفاجئ الجمهور بأن أظهر عيوب الدكتور طه في أسلوبه الأدبي، هو التكرار

والحشو، وما هو منه بسبيل، ثم يقول: وعلة ذلك راجعة إلى أن الدكتور طه يُملي ولا يراجع، وإذا به ينساق في قبيح كلامه، حتى يتطرق إلى علة الرجل المرضية الزمنية، وأن عماه قد آثر العمى أيضا على أسلوبه، وأخذ يكرر ذلك تصريحًا وتلميحًا، بل أوغل في ذلك حينما عقد مقارنة بين عمى بشار بن برد وأبي العلاء وعمى طه حسين، وهو أمر ما كان أرفعه عن ذكره. والحق أنها كانت سقطة عظيمة سقط فيها المازني، الذي مات وأدرك الناس أنه لم يترك لأسرته وعياله شيئا يذكر، فلا معاش ولا عقار ولا مدخرات، وكم كانت دهشتي أكبر حينما علمت أن طه حسين هو الذي قاد في الصحف حملة قلمية عنيفة في الصحف يطالب بها الدولة إلى رعاية أسرة الأديب الراحل، بل قرأت عما قاله وقد قال: إنه سيقض مضجع الوزراء حتى يستجيبوا للدعوة إلى هذه الرعاية، ولم يقف طه حيال هذا العزم الذاتي فقط، بل دعا حملة ا

لأقلام أن يفعلوا مثله، وجد طه في الأمر عمليا حتى نجح أن يجعل مجلس الوزراء يقرر تعليم أبناء المازني مجانا في كل مراحل التعليم، كما واصل سعيه حتى قرر مجلس الوزراء مرة أخرى معاشًا شهريًا لأسرة المازني وكان أول قرار في مثل هذه الحالة.

لله ما أروع طه وما أجل إنسانيته، وإذا كان الناس يلومونه على بعض أفكاره التي يرونها مجافية لثوابت الدين، أليس من حقه علينا هنا أن نتساءل أن سلوكه هذا قد ضرب فيه أروع مثال في التزام تعاليم الدين

التي تدعو إلى التراحم والبر والإحسان والعفو والصفح والوقوف بجوار الضعيف والفقير والمحتاج.
وهكذا كان طه

الأب والأم والشيطان

عجبا لهذا الأب وعجبا لهذه الأم!
يظن كلاهما أنهما بعد أن يزوجا ابنتيهما لشاب يرتضينه، أنهما ما زالا أصحاب السلطان والأمر والنهي على فتاتهما التي صارت تحت إمرة وظل رجل آخر.
فإذا بهما بدلا من أن يَخرجا من حياة ابنتيهما وزوجها، تراهما يزدان تدخلا وتحكما وتسلطا في كل صغيرة وكبيرة تخص حياة العروسين.
فإذا بالمشكلات والأزمات والمحن تعصف بالبيت الوليد الذي اجتمع أول ما اجتمع على كلمة الله، لتبقى كلمة الشيطان أقوى على يد الأب الأبله والأم الغبية.
حتى الفتاة التي تزوجت، ربما تكون متعلمة ونالت شهادة عالية، ومن المفروض أن يكون لها عقلا وشخصية ووعيا تدرك به مصلحة نفسها ومستقبل بيتها، ومعزة زوجها، لكن للأسف نرى هذه الأيام فتيات ممسوخات الشخصية، تتزوج إحداهن وهي لا تفهم معنى الحياة

الزوجية، وترى بعقلها الأحمق أن طاعة الزوج ذلا وخزيا وعارا.. إذا أمرها أمرا أو طلب منها طلبا، فإنها تعتبر ذلك جرأة منه وتطاولا وتسلطا، فتعامله معاملة الند للند، فتعتقد أنه لا حق له عليها ما دام أبوها وأمها على قيد الحياة.

وأصارحكم القول: إن فعل هذه الفتاة التي أصبحت زوجة لم تحظ بتربية رشيدة، ولم تعلمها أمها معنى أن تكون زوجة وربة بيت.

أعرف زوجة تعمل ولكن زوجها لا يريدها أن تعمل.. إنها رفضت أمره ولم تقبل برغبته، فغضبت وهجرت البيت، ولو أنها خرجت من بيت أصيل لعلمها أبوها وأمها أن طاعة الزوجة واجبة، لكن كثيرا من الأسر للأسف لم تتعلم ولم تعرف شيئا عن قيم الإسلام التي نادت بقوامة الرجل وقيادته للبيت، وأن كل طاعة له واجبة إلا طاعته في معصية.. وإن هذه الأسر الضالة تركت التلفاز والمسلسلات والانترنت يفسد عقول أبنائهم وأخلاق بناتهم.

إن الزوجة التي تعاند زوجها، وأمها التي تحرضها على عصيان بعلها، وأبوها الذي يشجعها على هجران بيتها، هم قوم لا يعرفون الله، وهم أحلاف للشيطان.

ولكن مالنا نلوم أسرة هذا طبعها وخلقها، تريد لابنتهم زوجا تابعا لا شخصية له ولا رجولة، بينما اللوم الأول على هذا الزوج، فما الذي منعه في ابتداء الخطبة، أن يهمل السؤال عن هذه الأسرة، وخلقها وطباعها؟

كيف فاته أن يهمل السؤال عن أم عروسه، فمما نعرف في أدبياتنا: أن البنت تشبه أمها.

تبقى ملحوظة مهمة وهي أن مثل هذه المشكلات التي أعرضها تنتشر كثيرا في المجتمع وحياة الناس، فلا يظن أحد أنني أقصده بعينه أو أنني أعرض به وبمشكلته، إنما أن ناصح أمين فلعل مثل هذه الكلمة بما فيها من قساوة الألفاظ أن ترد نزوات الشيطان ويفيء الجميع إلى عدل الله وحكم الله.

رب ضارة نافعة

قد تحدث مصائب ومحن في حياة الإنسان، وقد يستاء منها ويحزن وتسود الدنيا في وجهه، ولا يتركه الهم حتى يقضي على البهجة في محياه، ثم هو لا يدرك أن الله تعالى قد جعل في هذه المحنة منحة له وتفريجا ونصرا يغير مسار حياته.

ومن ثم تقول الحكمة المشهورة: «ما من مِحَنَة إلا وراءها مِنْحة»،

والله تعالى يعرفنا هذا السر ويذكر لنا هذه الحال فيقول: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

كثيرا ما يتعرض الإسلام لهوم عنيف في دول الغرب، وتقوم حملات متعصبة ضده بغية التشويش عليه والتنفير منه ومن أهله، ولكن الجماهير الغربية الواعية تقرأ عن الإسلام مدفوعة بهذا الهجوم النكر، ثم

إذا بها تقف على حقيقة الإسلام المظلوم، ليقودها الافتراء للانتصار للحق، إما مدافعين منصفين، أو معلنين دخولهم في هذا الإسلام، وهذا ما علمناه وقرآناه في أكثر من محنة ومع أكثر من عداوة.

ولعلي أقول في نفسي أمام ما أراه من ردود الفعل الغربية إزاء الهجوم والعداء على الإسلام الذي لا يستقوي عليه هؤلاء: لماذا لا تكون ردود أفعالنا أمام ما يتعرض له ديننا وما تناله ثوابتنا في بلادنا من حملات مشبوهة ومقولات نكراء يرددها قوم لا يعظمون الله ولا يشعرون بانتماء تجاه الإسلام دينهم ودين آبائهم، وقد تجد أحدهم متسميًا باسم النبي صلى الله عليه وسلم، أو باسم صحابي من صحابته، ثم تجده من فعله وقولة لعنة وجحودا لا نظير له.

لماذا لا نقابل هذا المنكر بردة فعل تشبه ما يحدث في الغرب، فنناصر الحقائق وندافع عنها أمام المرجفين؟!

ولعل العامل في اختلافنا عن الغرب حيال هذا التصرف وهذه المقابلة، يرجع إلى درجة الوعي والثقافة والحرص على المعرفة التي تفوق فيها الغرب علينا بالسنين الضوئية، بينما نحن خاصمناها ومنحنا عقولنا وقلوبنا وآذاننا لأقوال المرجفين المزيفين المنحرفين الجاحدين للحق.

فعلا قد تحدث بعض الفتن والمحن التي يكون في باطنها خير كثير، وثمرة يانعة لم ندرك نحن أو لم يأت في خيالنا أبدا ما يدعونا لتصور حدوثها، ويمكن هنا أن نطرح مثالا فكريا فنقول: ترى ما السبب الذي جعل الدكتور محمد حسين هيكل يتحول من مفكر متغرب تارة

ومتفرعن تارة أخرى إلى أقوى المفكرين المسلمين الذين لهم دفاعهم المحمود وانتصارهم للإسلام عبر مؤلفات زلزلت الدنيا وكان لها بريقها وتأثيرها وروعتها الشديدة؟

يقول إن سبب التحول أن نشطت الجهود التبشيرية في مصر بأوائل الثلاثينات نشاطا مخيفا، مما أدى لكوارث عديدة تسببت في إثناء الكثيرين عن دينهم، وضاق الغيورون وقتها بموقف الحكمة السلبي، وعلى جناح السرعة تألفت جمعية لمقاومة هذا النشاط المريب، كان من أعضائها شيخ الأزهر وقتها ومعه الدكتور محمد حسين هيكل، وكان هيكل ولموقعه السياسي أخذ يفكر كيف السبيل لرد هذا العدوان؟ وانتهى به المطاف أن أفضل ما يمكن أن يرد به على هؤلاء، هو أن يبحث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومبادئه بأسلوب علمي، ثم يقدم ذلك للناس تقديما يقنع المسلم وغير المسلم بصدقه صلى الله عليه وسلم، وأدى ذلك البحث إلى ظهور كتاب حياة محمد، الذي قيل أنه كان صدمة عاصفة، في عقل التغريبيين، الذين كانوا يشايعون الدكتور هيل فتألبوا عليه وأخذوا يتهمونه بالرجعية، لأنه رد مطاعن المستشرقين، ودافع عن نبي الإسلام، ونزه القرآن الكريم عن النقد العلمي، وكتاب هيكل كان فتحا عظيما في رؤية الراصدين انطلقت بعده كثير من المؤلفات لكثير من المفكرين والأدباء الكبار يدافعون عن دينهم وكتابهم ورسولهم، وأظهروا انتماءهم لدينهم بمؤلفات عظيمة نافعة شكلت جبهة عنيفة في دحر موجة التبشير؟

حتى طه حسين من يأخذ الكثيرون عله المآخذ الإسلامية، كان أول من كتب عن الدين وفيه وإحياء معالم السيرة النبوية، وحتى توفيق الحكيم أبدع في نصرة دينه أيما انتصار حينما جرى لأول مرة سياقا جديدا للسيرة النبوية حينما سردها في سياق مسرحي مدهش.

أرأيتم كيف كانت المحنة التي ولّدت منحة عظيمة وجعلت هؤلاء المؤلفين الكبار والرواد العظام، ولكن ماذا عن الكتاب والمفكرين في زماننا؟ هل ترانا ننظرهم وهم ينتصرون لدينهم أمام هذه الموجات الساقطة المريبة من التشويه والقدح والإساءة؟!

لا أحد ينتفض فرحمة الله على القدماء.

جحود التلاميذ

إن تعجب فليكن عجبك كبيرا من هؤلاء التلاميذ الذين يلازمون شيخهم وينعمون بقربه، ويظلهم بحنانه ومعيته، ثم يرحل عن الحياة ويخلفهم وراءه، فلا يكلف أحدهم خاطره أن يوثق مسيرة أستاذه ويؤلف عنه كتابا يخلد ذكراه، بل يكتفي من الوفاء له إذا ذكر أمامه أن يترحم عليه، وإذا زاد معيار الوفاء فيه، فليذكر له موقفا أو موقفين.

وهنا ألقي باللائمة الشديدة على هؤلاء التلاميذ الذي يقصرون في حق أساتذتهم، حينما يرون الزمن ينسدل على ذكراه وآثاره بسديم النسيان، فما عاد يذكره أحد أو يلتفت إلى اسمه في شيء.

كان الأولى بهؤلاء أن ينفدفعوا بالوفاء في مساره الصحيح، ويجددوا ذكر أساتذتهم، ويعرفوا الدنيا بعلمهم، وما تعلموه على أيديهم.

لماذا لا يؤلف أحدهم كتابا عن أستاذه، فيذكر من حاله ما جهله الناس ووجب أن يعرفوه؟!

وهو القصور الذي يتفلت من عاره كثير من الشيوعيين والعلمانيين والملحدين، وهم يسجلون رحلة رموزهم، ويؤلفون عن شخصياتهم الكتب والأسفار التي تحكي مآثرهم ونوادرهم، وتعرض على الدنيا كلها مسيرة جهودهم، ومواقفهم الإنسانية.

انظر للعقاد لقد ألف فيه المؤلفون أسفارا عدة عن حياته وعلمه، وضرب كل منهم في ميدان من ميادينه المتعددة، وكان أنيس منصور من أبر الناس بأستاذه حينما ألف كتابه "في صالون العقاد كانت لنا أيام".

وإذا نظرت إلى رجل كالعلامة المحقق الكبير محمود شاكر، لترى كثيرا من المتعصبين له اليوم، وهم يعلونه أرفع مواقع الإمامة في العربية والدين، لتبحث فيهم عن واحد فقط ألف عنه كتابا فلا تجد، وأنا واحد من الناس حاولت جاهدا أن أرى كتابا يتناول سيرة محمود شاكر لأتعرف عليه أكثر وأكثر فلم أجد، اللهم إلا كتاب ضعيف المستوى للأستاذة عايدة الشريف، ورغم ضعفه إلا أنه محمود لها ما فعلت، إذ تحركت عاطفتها ووفائها لأستاذها بما لم يتحرك به كثير من أتباعه ورواد صالونه.

نفس هذا اللوم هو ما توجه به العلامة البيومي رحمه الله وأنا أقرأ له في الجزء الرابع من موسوعة أعلام النهضة، حينما كان يتحدث عن الشاعر والمبدع الكبير الأستاذ حسن القاياتي، فوجه اللوم الشديد لمريدي الرجل وتلاميذه، كيف لهم أن يسكتوا فلا يكتبون عنه ويعرفون به، وفيهم من صار له في دولة القلم صيت ونباهة، كيف سكتوا جميعا عن الرجل، وقد كان في مدى نصف قرن من حياته الأدبية شاعرا مرموقا، وكاتبا لامعا، تجري الجرائد اليومية صباحية ومسائية بنفثات قلمه، أفيكون مصيره ونصيبه من الوداع هذا الجحود اللئيم.

بل ذكر البيومي ما يؤلم وهو يقول: كيف يكون شعوره النفسي في عالم الغيب حين يرى تلاميذه وقد ضنوا عليه بكلمات الوداع وإنها لأهون شيء يقال.!

وأنا لا أعلم كيف تكون نفس الدكتور البيومي نفسه، وكيف يكون شعوره النفسي وهو في عالم الغيب، ولم يسارع تلامذته للحديث عنه وتأليف الكتب في إبداعه وكفاحه العلمي، وتعريف الأمة بجهوده، أكثر من ١٢ عاما مروا على رحيل الرجل، ولم يخرج من تلامذته من ألف عنه كتابا يحفر في الدنيا ذكره، ويدوي باسمه في سمع الملايين؟ وكأن البيومي وهو ينعي على القياتي ما حدث له، ينعي في نفسه ذلك التشابه.

رحم الله الدكتور محمد عمارة والدكتور عبد الحليم عويس، فقد صمم كل منهم أن يخط كتابا عن الشيخ الغزالي، فسارع عويس ووضع كتابه

(الشيخ الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه) وتبعه الدكتور محمد عمارة بكتاب (الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية) شعورًا منهما بالمسؤولية الملقاة عليهما تجاه شيخهما الذي خدم الدعوة وكان من حصونها المانعة.

واقتفى أثرهم الشيخ القرضاوي في كتابه القيم (الشيخ الغزالي كما عرفته.. رحلة نصف قرن) بل نفس الشيء فعله عمارة مع القرضاوي، وقابله القرضاوي بكتاب مماثل عنه.

وإلى من يلازمون العلماء والأدباء اليوم، اغتنموا فرصة القرب من أعلامكم، وسجلوا مآثرهم ومواقفهم، فعسى تنفعكم يوما حينما تمتطون صهوة الوفاء، فتخطوا كتابا في مسيرتهم.

أهلها أهل شر

حينما كانت العلاقه سيئة بين مصر وتركيا، وكان هناك اختلاف سياسي محتدم معلن ملموس بين الدولتين.

خرج الإعلام ليسهم بدوره في هذا العراك وإذكاء نيران العداء، وسارعت الدراما كأحد أذرع الاعلام المهمة والغالبة لتدلي بدلوها في هذا الخلاف، وكان مسلسل (ممالك النار) الذي كان عبارة عن ١٥ حلقة يتيمة، وهو العدد المضحك حينما ننظر الى مقابله من المسلسلات التركية التي يبلغ الجزء الواحد من الحلقات فيه أكثر من ١٥٠ حلقه، فمن المفروض على مسلسل يشوه الصورة التركية، أو يهاجم تاريخ

دولة كتركيا، ويحاول ان يشوه صورة الخلافة العثمانية، كان الأولى به ان تكون حلقاته على أقل تقدير في ٥٠ حلقة لكن كما يقال: تمخض الجبل فولد فارا.

لكني لاحظت وقتها أن هناك دعايه عظيمه جدا جدا في ادعاء الاعجاز المذهل لهذا المسلسل ونجاحه الساحق، حتى كاد بعضهم أن يقول: إن الدراما المصرية لم تخرج لا في السابق ولا في اللاحق مثل هذا المسلسل روعة وإجادة.

أيضا كان لبطل المسلسل وهو الممثل خالد النبوي الذي لا أطيقه على المستوى الشخصي ويمجه ذوقي، ولا أقتنع به ولا اعترف به، حتى أنه أفسد علي صورة الامام الشافعي التي كانت في خيالي عنه، في مسلسله الذي جسد فيه شخصيته، لكنني كنت أندهش كثيرا حينما أرى هذه الأبواق التي تجعل منه وكانه يفوق أعظم ممثلي العالم وبعضهم جعل قدراته في التمثيل تفوق قدرات انتوني كوين مثلا او توم كروز.

وكانت هناك دعايات ثالثة كبيرة جدا جدا تمدح مدحا مفرطا في تاريخ ابن إياس الحنفي ذلك التاريخ الذي سجل احداث سقوط دولة المماليك و استيلاء العثمانيين على مصر وطبعا من المعروف ان ابن اياس كان يصف العثمانيين بأوصاف بشعة وأوصاف غير انسانيه في اعمالهم في الفتح وقسوتهم في التعامل مع اهل مصر والوحشية الباهظة التي عاملوا بها المصري.

حاول المسلسل ان يظهر ان (طومان باي) بطل قومي وأنه كصلاح الدين والمظفر قطز، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك، فقد كان مجرد سلطان حدث غادر خائن شأنه شأن كافة المماليك ومن يتتبع تاريخه يعلم ذلك ويدركه.

كذلك كان ابن إياس نفسه مؤلف الكتاب الذي تم الاعتماد عليه، إذ يعد قوله في العثمانيين مجروحا لان ابن اياس كان اميرا مملوكيا وكان والده وإخوته من ضباط المماليك وأمراهم، اما هو فاختار العلم وكتابه التاريخ فمعنى انه يذم العثمانيين ويبدي نفوره منهم ويصفهم بأبشع الوسائم فليس الامر أنه مجرد مؤرخ او مؤرخ أو إنسان عاصر الاحداث فقط، ولكنه قبل هذا انسان متعصب لبني قومه وهم المماليك، ومن ثم كان الاحتياج الكبير لمثل هذا المؤلف ومثل هذا الهجوم على تاريخ الاتراك وتاريخ العثمانيين، كانت ملحة في ذلك الوقت لتبني وجهه نظر صاحب بدائع الزهور، فظهر دور السلطان العثماني سليم الاول وتم تمثيله وكانه شيطان في صوره انسان، حتى المكياج ايضا حاول ان يدعم هذا التصور، فبدا وكانه شبح مرعب مخيف، ذو شوارب طويله وحواجب ثقيله يبدو على وجه الغضب والشر، ولديه شذوذ في التعامل الانساني، حتى يصوروا للمشاهد او يعطوا الايحاء المطلوب بكره هذه الشخصية، أذكر أن الممثل خالد النبوي وقتها جاء في أحد برامج وحاول أن يظهر بصورة المثقف وقال مادحا بافراط تاريخ ابن ناس وذكر: انا لم اكن اعلم تاريخ مصر هذا الرجل وهو ابن ياس حكى كل

شيء بالتفصيل وذكر اوصاف دقيقه جدا جدا جدا، تجعلنا من الواجب ان نقتنيه وان نقراه وان نسعد به وان نعرف كثيرا من الاشياء عن تاريخنا.

واذا كان هذا المدح المفرط لابن اياس والاعتماد الكبير على هذا التاريخ في وصف سقوط الدولة المملوكية ودخول العثمانيين لمصر وتعظيم اسم ابن اياس بهذا الشكل، ألم يكلف النبوي وغيره ممكن يطنطنون بالكتاب أن يقرؤوا ماذازقال في مصر وذكر من طبائع أهلها ورأيه فيهم؟

خاصه وانهم حاولوا ان يجعلوا من (طومان باي) بطلا مصريا مع انه لم يكن مصريا ولا علاقة له بمصر وأصوله ليست من مصر وانما هو من دولة المماليك وهي الدولة التي اتسمت عبر تاريخها بالظلم والقسوة والجبروت والقهر والغلبة والعدوان على المصريين.

لكن ماذا كان رأي ابن اياس في المصريين؟

ابن إياس الذي قالوا بأنه عاصر كل شيء ووصف بالحقيقة كل شيء كيف كان قوله في المصريين؟

وهل يمكن أن نمدحه ونعتز بكتابه بعد رأيه في أجدادنا، أم أننا سنذمه وننزله من المكانة العالية التي روج لها أصحاب المصلحة؟

سؤال نحتاج الإجابة عليه بعد أن نعرف ماذا ذكر عن المصريين.

يقول ابن إياس في باب ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وامزجتهم وما أشبه ذلك "وعندهم الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر على الشدائد، وسرعة الخوف، من السلطان، وعندهم قلة الغيرة على عيالهم، وعندهم

التحاسد، في بعض وكثرة الكذب، وذم الناس، ومنهم من خصه الله بالعقل وحسن الخلق، حتى كلاب مصر أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وقيل إن الأُسد اذا دخلت مصر زلت، وقل أزاها عما كانت في القفار وذكر قول ابي الصلت: أهل مصر الغالب عليهم اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، في اخلاقهم رقة، وعندهم بشاشة وملق، وعندهم مكر وخداع، ولهم كيد وحيل وذكر كذلك من قول بعضهم: نساؤها شر نساء الأرض، وعندهم خبث ودهاء ومكر ورياء، وهي بلد مكسب لا مسكن أهلها أهل شر، فكن منهم على حذر".

شكسبير عدو اليهود

الأحداث الأخيرة أظهرت مدى تغلغل اليهود في المجتمعات العالمية، وهو التغلغل الذي وصل إلى حد السيطرة، وحد الكفر بكل تلك المعاني التي يرفعها الغرب عن الإنسانية والتراحم والعدالة والمساواة..

الكل اليوم أشاد بحق إسرائيل ليس في الدفاع عن نفسها كما يقولون، ولكن حقها في قتل المدنيين الأبرياء، وعملية التطهير العرقي البشعة التي تقوم بها في قطاع غزة.

أكبر جريمة إنسانية يشارك فيها العالم كله بحكوماته التي لا تستطيع أن تقول لإسرائيل وحلفائها: لا.

ولكن يمكننا القول اليوم: إن إسرائيل نجحت في السيطرة على الحكومات، لكنها خسرت الشعوب التي افتضحت أمامهم، وتبين للقاصي والداني أكذوبة إسرائيل وعنصريتها ووحشيتها، وسقطت كل تلك السنين الطوال التي حاولت فيها إسرا..ئيل أن تظهر بمظهر الضحية المضطهدة التي تبحث عن حقها.

وإن أشد ما يؤلم إسرائيل اليوم وسط ما تخوضه من تلك الحرب التي تسميها حرب وجود، هو تلك الكراهية الفائقة التي قوبلت بها من كل أحرار العالم، وهذه المظاهرات الحاشدة التي قامت في أغلب الدول تندد بها وتلعن وجودها.

استطاعت إسرائيل بنفوذها الرهيب وسيطرتها على عالم المال والإعلام منذ أزمان، أن تقمع الحقيقة وتكمم الأفواه، ولم يعد هناك حرية أمام ما يغضب إسرائيل.

كن حرا كما شئت.. أما أن تذكر اليهود وإسرائيل بشيء فهذا خطر كبير يؤهل صاحبه لعقاب أكبر.

المفكر الفرنسي (روجيه جارودي) تمت محاكمته عام ١٩٩٨م بتهمة معاداة السامية لأنه ألف كتابا تحت عنوان (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)، وشكك فيه من العدد الذي يشيعه اليهود عن محرقة الهولوكوست وأنهم (٦) مليون يهودي، وقال: إن هذا الرقم تمت زيادته لابتزاز الدول الأوروبية والحصول منها على مساعدات، مما عرضه لعقاب قانوني سنة مع إيقاف التنفيذ.

لقد قُدم للمحكمة في بلد الحريات فرنسا، لأنه مس اليهود بما يشينهم.
اليهود أقوياء جدا في مجالات النشر والإعلام ومما يذكر أنهم وقبل حرب أكتوبر مع مصر عام ١٩٧٣م لم تكن أي صحيفة أو جريدة في الغرب تجرؤ على أن تذكر العرب بخير، وكلمة فلسطين كانت محرمة في قاموس النشر في الغرب، لأن هذا اللفظ يؤلم اليهود.
بل بلغت بهم الجرأة أن يطالبوا بحذف كل ما يسيء إليهم في الأناجيل التي هي الكتب المقدسة لدى النصارى، حتى عذاب المسيح في آخر أيامه، يريدون حذفه أو تخفيفه على الأقل تخفيفا لمسؤولية اليهود. ويرون أن عذاب المسيح يتحمل مسؤوليته جنود الرومان وحدهم.
وهناك من يطالب بإلغاء إنجيل متى لأنه شديد العنف على اليهود، وهم يعلمون أن هذا الإنجيل تحديدًا هو أساس صدارة كنيسة روما على غيرها من الكنائس، والأساس القانوني لسيادة البابا على غيره من رؤوس الكنائس.!
ولكن لا شيء يعلو فوق سمعتهم وتجميل صورتهم حتى ولو كان الكتاب المقدس.!
أما اليهود في أمريكا فيصرون على تحريم كتب كبيرة مثل تاجر البندقية للأديب الإنجليزي شكسبير، لأن فيها إشارات ضد اليهود، كما نجح يهو..د أمريكا فعلا في استصدار قرار بتحريم الصلاة المسيحية في الصباح في المدارس، لأن تلك الصلاة تجرح مشاعر اليهود.

والسيطرة القوية على الفكر والإعلام حاولوا ممارستها مع مصر حينما طلب مناحم بيجن من السادات أن يسكت الشيخ الشعراوي بل طال الأمر بوزير التعليم الإسرائيلي إلى المطالبة بحذف بعض آيات القرآن الكريم.

فقد فوجي الأستاذ أنيس منصور يومًا بالسادات يستدعيه ليبلغه شيئا شديد الخطورة بخصوص الشيخ الشعراوي، وهو أن خطابا وصله من بيج.ن رئيس وزراء إسرا..ئيل وقتها يشكو فيه من الشيخ الشعراوي لأنه يهاجم اليهود ليلا ونهارا ومن غير مناسبة، وخاصة في الحلقتين الأخيرتين قبل إرسال الخطاب، ولما راجع أنيس الحلقتين لما يجد شيئا مما قاله بيجن.

وفي ذات الوقت تلقى خطابًا من بطرس غالي وزير الخارجية وفيه نص خطبة وزير التعليم الإسرائيلي الذي يقول فيه: لن يتحقق السلام بيننا إلا إذا حذفتم بعض آيات القرآن الكريم، وهنا كلفني السادات بالسفر إلى إسرا..ئيل، وقال له: قل لبيجن على لساني: إذا لم يكف عن الادعاء بأن الشعراوي يهاجم اليهود وليس الصهاينة، فإنه سينشر خطبة وزير التعليم على جميع القنوات في مصر والعالم العربي، حتى توقظ الكراهية النائمة عند ملايين المسلمين.. وهو ما حدث فعلا وتوقف بيجن عن ادعاءاته".

اعتذار إلى الرافعي

لعلي في مقال سابق، قد ظهر من قلمي ما يوحي بالتجني السافر على أديب من أعظم أدباء العرب، وإمام لا يبارى في سحر القول والبيان، وجهبذ لا يدانى في معرفة العربية، وقلم له السبق الخالد في نصرة الإسلام وإنصافه من أعدائه..

وأنا هنا لا أصالح الغاضبين من أصدقائنا المتشيعين للرافعي والمتعصبين لأدبه وأثره، بقدر ما أصالح نفسي حينما أجبرها على الرجوع إلى الحق وإنصافها للرجل، وإزاحة ما حاول مقالي السابق أن يرميه به من تهم هو والله في سيرته وحياته ونفسه ومواقفه، أبعد ما يكون عنها.. وعجبًا قلت، وآبدة كتبت، وجرما جنيت، أيكون هذا الرجل الجسور، وآية الله في القول، والبعث الالهي للبيان العربي، والسيف الذي سله الله على أعدائه.. أيكون من المنافقين المتملقين؟!

إن هذا لمنكر من القول وزورًا، وإن شئت فقل غمط موحش للحق، واعتبرها إن كنتَ من المعذرين لي كبوة كاتب، أو شطحة قلم، سرعان ما تنبه لها وأزال إفكها وأبان فجورها.!

كيف ينافق هذا الأبي الذي كانت كرامته تطاول السماء، وكان اعتزازه بنفسه يسمو على الرؤساء والوزراء؟

ليس الكلام هنا كلام إنشاء، أو جملا تستقي سبكها من وحي عاطفة تشعر بالندم، بل ندلل في دفاعنا عنه بالشواهد المعلومة، والأدلة

المنصوبة، أمام هذا الاجتهاد الذ أعترف أنه أغفل الإحاطة الكاملة بأخلاق الرجل الحقيقية.

وكان لزاما على القلم أن يتراجع، حتى لا يظلم قامة لا مثيل لها في تاريخنا الأدبي.

حينما كان الرافعي أديبًا عظيما شاع اسمه وذاع صيته، وفي ذات الوقت موظفا بسيطا في محكمة طنطا، لم يعرف عنه أبدًا أنه هرع إلى رئيس مهنئا له كشأن بقية الموظفين، لقد كان الرئيس هو الذي يذهب إليه في حجرته يزوره، أولو كان منافقًا متملقًا، لكان الأولى به أن يتزلف إلى رؤسائه في العمل، حتى يكسب ودهم ويسعى إلى رضاهم؟

لقد كان شديد الحساسية فيما يظنه ماسًا بكرامته، فقد ذكر العريان أنه ذهب إليه مرة فوجد أحد المفتشين يجلس إلى جوار مكتبه، فهم بالانصراف، فلم يكن من الرافعي إلا أن جذبه من يده وقال له ثبات وثقة: اجلس.

وحدث أن وجه المفتش إلى الرافعي سؤالا، فما كان منه إلا أن قال للعريان: "من فضلك تول عني جوابه، فإنه في حاجة إلى معلم مثلك"

ألو كان منافقًا متملقا، أيكون على هذا النحو من معاملة المفتشين الذين تنخلع لهولهم قلوب الموظفين؟!

إنه رجل جرئ شجاع لا يهاب أحدا ولا يخضع لتهديد أو يخشى وعيد.

وحدث مرة أن ترأس المحكمة رئيس جديد ذو سطوة، فهرع جميع الموظفين لتهنئته إلا هو، فلما سأل الرئيس عن الرافعي قالوا لم يحضر،

وانتهزها الحاضرون فرصه فأثاروا حفيظة الرئيس ضد الرافعي، فكتب إلى وزارة الحقانية يطلب منها إخراجه من وظيفته لأنه مستهتر لا يحافظ على مواعيد العمل الرسمية ولا يحسن التفاهم مع الناس.

لم يرد عنه أبدا أنه تذلل لهذا الرجل وسعى إلى إرضائه وكسبه ليخفف من غضبه عليه، وذلك لأنه كان عزيزًا كريمًا لا ينافق أو يداهن.

ودعك من هذا كله فربما لم يكن الرافعي متعلقًا بالوظيفة يائسًا من أمرها.. وانظر هنا لحاله مع الكبراء من أخطر رجال الدولة.. والذي لو كان من المنافقين، لكان معهم كالحمل الوديع، يتقبل غطرستهم وعلوهم عليه، لكن ذلك لا يستقيم مع رجل يمثل الإسلام أعظم تمثيل، ويحمل لواء الدفاع عنه خير دفاع.

أخبرني بعض العلماء أن هذا النقد للرافعي تجن كبير عليه، كما أنه يؤثر في وعي بعض السطحيين الذين لا يميزون التمييز الدقيق، فيهون عندهم تراث رجل كان يشهر قلمه في وجه أعداء الإسلام.

كما أن هذا النقد المجحف للرافعي وبسبب تقديمه ومدحه للملك فؤاد، الذي هاجمه العقاد، ورأينا منه تفضيل العقاد على الرافعي همة وشجاعة، إنما كان مجرد اجتهاد سياسي ورؤية يمكن أن يختلف الرائي فيها مع العقاد، ناهيك أن العقاد تحمس قلبه لهذا العدوان على الملك لأنه كان نائبًا في البرلمان، وتخيل معي أنه لو لم يكن نائبًا فهل كان يمكن أن يقول مثل هذا الكلام، ؟!

كما أننا غفلنا أمرًا مهما جدا في ميزة تلك الحقبة، وهي أن هذا العهد كان مشوبا بالحرية والديمقراطية وصراحة التعبير، ولم تكن هناك سلطة إلا سلطة القانون، وقد رأينا في عهد ناصر كثيرا من التجاوزات التي لم يجرؤ العقاد أن ينتقد منها شيئا ولو بسطر واحد أو أي صورة كتابية ولو كانت مواربة، لأنه يدرك أنه لا حرية، وأن أي كاتب يتجرأ على النقد، فإن مصيره هو السحق والسجن الاعتقال والتشريد وربما القتل.

ثم انظر إلى هذا المدح الذي كاله الرافعي للملك، وتأمل معانيه، إنه يقول له: " وجلالة الملك فؤاد حرسه الله هو اليوم رجاء الإسلام، بل هذا الجسم الإسلامي كله، فهو الملك الراسخ في العلم، ثم القوي بعلمه في الإيمان، ثم المتمكن بإيمانه في الفضيلة"

ولعل هذا القول مما يستحث الحاكم على الوقوف في صف الإسلام ومناصرته وإعزاز حكمه، وإن لم يكن على المستوى المطلوب، لكنه خاطبه باسم الإسلام وذلك شيء جيد، وافقه فيه داعية شهير خرج فيما بعد ودعا لفاروق أن يكون خليفة للمسلمين، رغم أن فاروق ليس الجدير بهذا المنصب، لكن رجاء الداعية قيام الخلافة حتى لو قامت على يد من لا يستحق.

وماذا كسب الرافعي من قربه من الملك؟

لقد طلب منه أن يكون شاعر الملك، ولم تكن هذه المكانة لتجعل منه كذلك الببغاء الذي يسير خلف سيده يمدحه كلما قام أو قعد، وإنما

كانت وظيفة تؤهله لقول قصائد معدودة كل عيد جلوس ملكي أو ما أشبه ذلك من الوقائع الرسمية.

لم يكن الرافعي يتقاضى أجرا ومالا على هذا المنصب، وإنما كان مجرد منصب أدبي، وكل ما ناله بعض الشكليات التي يمكن لأي مواطن أن يحصل عليها، ومنها جواز سفر مجاني للسفر في الدرجة الأولى على خطوط السكة الحديدية، وتعليم ابنه على نفقة الديوان الملكي، وهو أمر كذلك يحصل عليه كثير من الطلاب، وقد كان طه حسين واحد من هؤلاء في تعليمه، وطبع كتاب إعجاز القرآن على نفقة الملك وهو أمر يخدم الأدب والإسلام قبل أن يخدم الرافعي أو يخدم الملك.

ولكننا هنا يجب أن نثبت أن كل ذلك لم يدم، وأن هذه الامتيازات التي حصل عليها الرافعي تبددت، فلم يعد شاعر الملك، ولم يعد الإنفاق على تعليم ولده من الملك، فماذا حدث وما جرى؟!

استعد الآن لتُكبر قامة الرافعي بعد هوان مما قرأت سابقا، لتعرف كم أن لهذا الرجل من شعور الكرامة وإحساس العزة، ما يضعه زعيمًا من زعماء الحرية، ويجعل منه أعلى مثال من أمثلة الفروسية.

فلقد ساءت الأمور بينه وبين الإبراشي باشا الذي كان ناظرا للخاصة الملكية بعد محمد نجيب باشا الذي احتضن الرافعي وعينه شاعرًا للملك، ويرجع هذا الاستياء إلى اعتداد الرافعي بنفسه وكبرياء ذاته، فقد ذهب مرة إلى الديوان الملكي ليقابل الإبراشي باشا، فجلس في انتظار مقابلته بعد أن أخطره بمجيئه، وطال الانتظار ساعات، وانتهى

الأمر بعد طول انتظار أن طلب منه أن يعود في يوم آخر لأن معالي الباشا مشغول، ويالها من مهانة كبيرة حاولت أن تنال أديبًا تهتز له الأرض، وصاحب قلم يرى الناس كلهم دونه مكانة وقيمة، وهنا تثور ثائرته وينتفض انتقامه لكرامته، فيقتحم الغرفة التي فيها الباشا وبلا استئذان وكان وقتها يجلس مع أحد الأجانب، وقال الرافعي له ما أنصف به كرامته وخرج، فأسرها الإبراشي في نفسه ، فسحب منه جواز السفر، وخلعه من منصب شاعر الملك، وقطع المعونة المالية عن ابنه الذي يدرس الطب في فرنسا.

هل لو كان الرافعي منافقا أبالله عليك تكون هذه أخلاق منافقين؟ أو تصرفات متملقين؟!

كلا والله إنها نفس حر يأبى المزلة والهوان ويرفض الانكسار، وكم تمنيت أن أعرف ماذا قال الرافعي للباشا وكيف انتقم لكرامته ومكانته.

لكن اقتحامه للحجرة وحده دون استئذان كفيل بإهانة هذا الرجل الذي لا يعرف قيمة من يقف على بابه، فكان لابد من تقريعه وتأديبه وقد كان.

وهل تعلم أن الرافعي في هذا الغضب لا يهم أنها كانت النهاية، وأن أي مجد حصله من القصر إلى زوال؟ لقد كان يعلم ذلك جيدا، ولكن ليذهب كل شيء إلى الجحيم ولتذهب كل المكاسب إلى الضياع أمام أي هفوة تنال من نفس هذا الكبير وكرامته.

حاشا وكلا أن يكون الرافعي من المنافقين أو المسترزقين، أو ممن يبيعون أقلامهم لمن يدر عليهم المال والجاه.

ولقد تم تعليم ولده الطب من عرق جبينه، كافح عليه وعلى إخوته بقلمه، وشاء القدر أن يحصل ما حصل، حتى لا يكون لأحد على الرافعي منة وفضلا.. فليقبل الإمام الكبير اعتذاري له، وليسامح غلطنا فيه.

ما أنا.. لا.. من أنا

دعني أقول لك: ليس شرطا أن تكون مفكرا أو أديبا أو عالما أو زعيما أو قائدا حتى يتسنى لك أن تكتب سيرتك الذاتية، وهنا اسمح لي أن أقول لك ثانية: يكفي في هذا أن تكون إنسانا.!

نعم فبعض الناس ممن نراهم حولنا ونطلق عليهم عاديون، نرى في جعبة أيامهم وحكاياتهم ومواقف أيامهم حشودا هائلة من العجائب والطرائف، والتي لو وجد هناك من يدونها لهم لخرجت أعظم سيرة ذاتية تبهر الألباب والأذواق.

أعرف صديقا لي كان لديه مخزون هائل من مواقف الزمن ومشاهد الحياة، وكنت أحيانا أجلس إليه وأستمع له وأجعل منه مادة لكتاباتي دون أن يشعر.

وهناك أناس كلما عرضت عليهم أن يكتبوا سيرتهم الذاتية يقولون لك: من أنا لكي أكتب سيرتي الذاتية.

ياعزيز ليس شرطا أن تكون قد صعدت إلى القمر أو حررت القدس أو نلت نوبل حتى تكون مؤهلا لكتابة السيرة الذاتية.

فهناك من تضج حياتهم بالزخم الكبير الذي يفوق حياة حتى من صعدوا إلى القمر ونالوا نوبل.

النجاح شيء والسيرة الذاتية شيء آخر.

بل ليس شرطا في السيرة الذاتية أن تكون مواقف أو أحدث مدهشة تعج بالغرائب المثيرة، إذ يمكن للسيرة الذاتية أن تأخذ ألوانا أخرى كأن تكون تعبيرا عن تأملات أو خواطر عاشها أو أحسها الإنسان وتأثر بها وجدانه وعاطفته ومشاعره.

ومن الملفت أننا نجد بعض الشخصيات قد كتب سيرته التي صفق لها الجميع من باب الصدفة، ولم يكن أبدا في حسبانه أن يكتب يوما سيرته الذاتية، وما أن كتبها حتى كانت معلما عليه، وصارت أعظم ما أنجزه وحققه من تراث حياته.

فهذا الشيخ الغزالي رحمه الله وقد حثه الأستاذ عبد الوهاب مطاوع أن يكتب سيرته إلا أنه رفض الفكرة متعللا بأي علة، ثم مات وظهرت له سيرة مختصرة من (٦٠) صفحة ما أن تقرأها وتنتهي منها في جلسة واحدة، حتى تأخذك الحسرة أن الشيخ لم يكملها في كتاب ضخم من فرط جمالها وروعة سردها وجميل مواقفها.

في العام الماضي كانت لي تجربة مع سيدي المستشار الجليل بها المري، حينما عرضت عليه أن يكتب مذكراته بحكم كونه أديب بليغ فخم العبارة فصيح البيان، ووجدت منه نفس ما يتقول به الكثيرون فيقول لي: من أنا حتى أكتب مذكراتي.. إن حياتي هي أمي وأمي هي كل حياتي، فلما قال ذلك، قلت له ولو كان.. أليس من تحقها عليك أن تكتب أيامها وحسن تربيتها لك؟!

وهنا لم أدرك أنني قد لعبت على الوتر الذي يهتز له فؤاده، ونقطة الضعف في عاطفته التي لا يمكن أن يقاومها أو يتملص منها باعتراض، إنها أمه التي أحبها حبا منقطع النظير وكانت روحه ومهجة قلبه.

صمت الرجل وانقطع الحديث بيني وبينه، ثم إذا به يفاجئني بعشرات الصفحات التي كتبها لتكون بداية لسيرته الذاتية، والتي جرت إلى مئات الصفحات التي جعلت منها سيرة ذاتية ثرية من العيار الثقيل.

ولعلي هنا كان موقفي شبيها بموقف بالأستاذ الصحفي زهير الأيوبي محرر مجلة المسلمون الذي كان سببها في كتابة مذكرات بلغت بلغت (مجلدات في قرابة (٤٠٠٠) آلاف صفحة للأديب والعالم الكبير الشيخ علي الطنطاوي، لم يكن مرتب لها، ولم يكن أبدا في حسبانه أن يكتبها، بل على العكس حينما عرضت عليه الفكرة من الأستاذ زهير الأيوبي قابلها برفض شديد ولكن الرجل لم ييأس وظل يتابعه ويلح عليه حتى كتب هذا العدد الضخم من مذكراته التي تفوح رقة وعذوبة.!

بل كان الشيخ يعتقد حينما وافق أنه سيحكي حياته في حلقة أو حلقتين تنشرهما المجلة، فإذا بنهر الذكريات يتدفق على عقل الشيخ وتدب فيه الحماسة للكلام عن حياته ومعها عن حقبة مهمة من تاريخ سوريا والبلدان العربية والإسلامية حتى اكتملت الذكريات في ثمانية مجلدات متاحة الآن في صورتها الورقية، وعلى شبكة الإنترنت، سواء بسواء !

يقول الأستاذ الطنطاوي: "ثم أحالتني الأيام على التقاعد، فودعت قلمي كما يودع المحتضر، وغسلته من آثار المداد كما يُغسل من مات، ثم لففته بمثل الكفن وجعلت له من أعماق الخزانة قبراً كالذي يدفن فيه الأموات، حتى جاءني من سنة واحدة أخ عزيز، هو في السن صغير مثل ولدي، ولكنه في الفضل كبير، فما زال بي يفتلني في الذروة والغارب (كما كان يقول الأولون)، يحاصرني باللفظ الحلو، والحجة المقنعة، والإلحاح المقبول؛ يريدني على أن أعود إلى الميت فأنفض عنه التراب وأمزق من حوله الكفن، وأنا أحاول أن أتخلص وأن أتملص، حتى عجزت فوافقت على أن أكتب عنده ذكرياتي. فيا زهير: أشكرك؛ فلولاك ما كتبت) يقول أحد الكتاب: "فلنتأمل كيف لو أن المحرر أو الناشر قنع بالرفض من صاحب السيرة ولم يلح ولم يقنع، وكيف كنا سنخسر اليوم هذا الكنز الثمين من التاريخ والأدب.؟!"

بل هل تتخيل وأنا أحدثك اليوم عن أمر المذكرات أن (الأيام) والتي تعد أشهر سيرة ذاتية في حياتنا الأدبية وهي قصة عميد الأدب العربي

طه حسين، جاءت من قبيل الصدفة والحاجة ولم يعمد يوما أو يفكر أن يكتب مذكراته؟!

نعم هكذا جاءت الأيام وكانت قصتها.!

ذكر الأديب والصحفي المخضرم بدار الهلال الأستاذ أحد زكي عبد الحليم في مقالة له بعنوان (طه حسين .. بخمسة جنيهات!) أن الدكتور طه حسين حينما فقد مكانته الجامعية المرموقة بسبب أزمة كتاب الشعر الجاهلي، والتي ترتب عليها مواقف معارضة ومستهجنة انتهت به إلى العزلة وصار مهددا في مصدر رزقه.

وقتها لم يكن الدكتور طه حسين من كتاب مجلة الهلال، ولكن الأستاذ إميل زيدان أحد صاحبي دار الهلال رأى أنه من التقدير أن يقف إلى جانب الرجل في محنته، وذهب إليه في بيته ليعرض عليه أن يكتب مقالاً شهرياً في الهلال مقابل خمسة جنيهات، وهو في ذلك الوقت مبلغ كبير لا يحصل عليه إلا عباس محمود العقاد، كاتب الهلال الأول، وكانت وجهة نظر أصحاب الهلال أن هذا المبلغ يعينه على الحياة بعد أن تقطعت به أسبابها.

ولكن الدكتور طه كان يعاني في هذه الفترة من أزمة نفسية حادة، وقبل العرض ولكنه لم يكن يدري ماذا يكتب مع هذا الضغط النفسي الهائل؟ كما أنه محظور عليه كذلك أن يكتب في الصحف أي رأي في الدب والفكر فالدنيا كلها هائجة بسببه.

وأخيراً خطر له أن يكتب عن ذكرياته وبعض أيامه الماضية وكأنه يستعيض بذكريات الماضي، رغم مرارته، عن الحاضر بكل ما فيه، وعن المستقبل بكل ما يمكن أن يحمله.

ويمضي الأستاذ عبد الحليم قائلاً: "وما كاد طه حسين يبدأ الكتابة حتى تحولت الكتابة من مجرد خواطر وذكريات إلى عمل أدبي رائع، ما زال مسائلاً أمام أعين كل الأجيال الثقافية، وهو كتاب (الأيام) !"

والحق أن المنحة كانت وليدة المحنة، ونتج عنها أروع ما كتب في السيرة الذاتية عن إنسان تحدى الصعب والمرار حتى وصل إلى قمة الهرم.

أما أنا فقد كان أبي رحمه الله أو كنت أنا أراه واحدا من هؤلاء الذين تعج حياتهم بما يستحق أن يكتب، وقد كنت أحفزه بين الحين والحين إلى هذه الخطوة ولكنه كان من المسوفين، وظل كذلك يقول سأكتب مذكراتي، إلى أن مات ولم يكتب شيئا.

وكذلك مما آسى له كثيرا أنني وقد كنت وثيق الصلة بالعلامة الكبير فضيلة الدكتور (محمود عمارة) وهو من أكبر الأدباء وأفصح الدعاة الذين تحدثوا بلسان الأديب، وكنت وقتها شاب صغير لم تكن لي ما أراه اليوم من مدارك العقل، ولو أنني أدركت أيامه وأنا على ما أنا عليه اليوم، لاستخرجت منه الكثير والكثير مما تنتشي له أذواق القراء من ذكريات أيامه وشواهد حياته.

وأحب في هذا الموطن أن أقول: أن الأزهر الشريف بعلمائه ودعاته ورموزه، وكل مثقفي مصر وأدبائها ومفكريها، والمكتبة العربية برمتها

يشدون على أيدي مولانا الدكتور النبوي شعلان، لينجز مذكراته ويستحثونه أن يحشد إليها كل طاقته ووقته وجهده حتى يتمها.. فالدكتور النبوي منذ أمد بعيد بصدد كتابة مذكراته التي يراد لها أن تخرج إلى النور تحت عنوان (وحي الالم أكثر من نصف قرن تحت العمامة وبين أصحابها)

وأنا لا أعبر بهذه الحفاوة البالغة لهذه المذكرات، لأنني أحب الدكتور النبوي، أو أنه بتواضعه الجم يضعني في مقام الابن له، أو أنه بلدياتي الذي نفتخر به، ولكن لأن من يستمع إلى الدكتور النبوي وهو يروي مساجلات أيامه، يوقن أن هذا الرجل قد خاض ملاحم الحياة محاطا بالعجائب مصاحبا للمدهشات والغرائب، بل تدرك أن لديه لا يمكن أن تجده عند الآخرين من الوقوف على الأخبار والحقائق لكثير من محطات الحياة وحوادث الدهر.

كلي شغف سيدي لقراءة هذه المذكرات.

ليس لكم فيه حق

فضيلة الأستاذ (محمد بخيت المطيعي) عالم فحل ضخم فخم جسور، ذو تاريخ مشرف في ميدان الأخلاق قبل ميدان العلم.

لم يكن رحمه الله مفتيا لمصر وحدها وإنما كان مفتيا للعالم الإسلامي بأسره، ولقد كان من مواقفه البارزة التي تدل على مبلغ دينه وأخلاقه،

أن رفض مبلغا كبيرا من المال يقدر بعشرة آلاف جنيه مصري، في وقت كان مثل هذا المبلغ ثروة ضخمة تغني صاحبها أيما غنى، رفضه حينما أصدر فتوى شرعية استحق بها أحد الأثرياء مقدارا كبيرا من الميراث، فلما علم الوارث، سارع يكافئ الشيخ الكبير، بهذا المبلغ الضخم، جزاء فتواه، فإذا بالشيخ ينهره ويقول له: (العلم في الإسلام لا يباع).

ومن هذه الجملة التي نطق بها الشيخ رحمه الله والتي حاصرتها بقوسين لمبلغ أهميتها عندي، فإنني أحكي موقفا حدث لي مؤخرا، حينما قمت بوعد القراء بنشر كتاب نادر لعالم كبير إلكترونيا، فإذا بدار نشر تخاطبني على الخاص، وتخطرني بأن كل كتب هذا العالم الجليل محصور نشرها لديهم بناء على عقد أبرموه مع الورثة، ولا يجوز لي الإقدام على نشر أي شيء للراحل بهذه الصورة.

هذه الدار التي أشكر لها حسن موقفها وتلطفها معي، لم يكن لي بها أي صلة من قبل، ولم أكن أعلم عنها شيئا، ولم يكن محدثي من جملة أصدقائي حينما علم بما أنوي عليه، فحرت كثيرا كيف علم الرجل بما نشرته، وكيف واجهني بالموقف القانوني، كأنني متهم في محكمة، وأخذت ظنوني تتجه شرقا وغربا، من أخطر الدار بالأمر؟ فلجأت لبعض الورثة لأريهم هذه المحادثة وأتأكد من صحة الكلام، فقالوا لي: نعم هذا صحيح فهذه الدار متكفلة بطبع كتب والدنا الراحل، وفي أثناء المحادثة خطر ببالي أن يكون محدثي هو من أخطر الدار بالأمر، فقلت

له: هل حضرتك من أبلغ الدار بالأمر؟ فقال: نعم أنا من فعلت ذلك لمعرفة وضعنا القانوني.

الحق أنني دهشت أو يمكن أن تقول: صدمت، لأن نجل العالم الكريم، صديق عندي ويعرفني ويعرف محبتي ومعزتي لوالده المبارك، ولم أكن أتخيل أبدا أن يكون هذا التعامل مع من يحبون والدهم بهذه الصورة المجحفة.

كان الأولى به وهو من جملة الأصدقاء، وأحيانا يعلق عندي، أن يطالبني بلطف، لحذف ما نويت عليه، وإلغاء نشره، ولا شك أنني سأستجيب كرامة للوالد العالم.

ولكن ما حدث كان شيئا ينافي ينابيع المودة والتعامل الجدير بمن يكن لهم الحب والتقدير والاحترام، فقد جعلوني وكأنني في محكمة أواجه اتهاما خطيرا يمكن أن يجر علي مساءلة قانونية، وأتعرض معه لإشكال كبير.!!

لم أغلق صدري عما ألم به من ضيق، وصارحت هذا الابن بأن هذا خطأ وأن كل كتب والده منشورة على الإنترنت، فلم إذن هذا التعنت مع كتاب من عشرات الكتب له، وهل تضيق الدنيا إذا نشر هذا الكتاب مع ما كل ما نشر من تراثه؟ فإذا به يخاطبني فيقول: ونحن لان نسامح في حقنا، وأنت أفضل من يعرف الحقوق، والله سبحانه يطالب بحفظ حقوق الناس، وليس معنى أن أحدهم نشر كتابا لوالدي أن نكون مثله

ونفرط في حقوق الناس، ولن أجادلك في هذا الأمر، وانتهى الحوار بصورة مؤلمة للنفس.

والحق أن هذا كلام خطأ وليس هذا الكتاب وكل ما خلفه الوالد الكبير من علم وأسفار حق لكم، فهي حق العلم، وحق الإسلام، وحق الأمة، وحق الطلاب والمريدين، ولو أنه رحمه الله على قيد الحياة لما قبل بهذا الكلام، أو ارتضى هذه الدعاية، ولما قبل أبدا أن يُحجب العلم عن طلابه بسبب أبنائه الذين يسعون خلف الربح المادي.

أما مسألة الحقوق هذه فهي صحيحة ولكنهم لا يعرفون أن هناك فرقا بين الحق الديني والحق القانوني، يمكن أن يكون هذا حقكم القانوني، لكن لا تقحموا الدين في الأمر، فهو حق قانوني لا ديني، وأنا عن نفسي لو كان والدي عالم كبير، لنشرت كل كتبه على الإنترنت، رجاء حسنة أو ثواب يذهب إليه في مرقده، أما أن أمنع العلم وأكتمه بحجة الحق، وربطه باسم الدين، فهذه أكذوبة، وقد درسنا في الأزهر في قانون الأحوال الشخصية، كثيرا من المسائل التي كان أخبرنا فيها شيوخنا بقولهم، هذا جائز شرعا لا قانونا، وهذا ممنوع قانونًا لا شرعا.

أذكر أنني، حينما رحل شيخنا العلامة الدكتور (محمود محمد عمارة) وخلف من ورائه تراثا علميا كبيرا، ماتت الكتب ولم يعد لها ذكر، وصار طلابه وتلاميذه يسمعون عنها ولا يجدون الفرصة للحصول عليها، سارعت بحكم قرابتي من أسرة الشيخ الراحل، بتصوير كل كتبه وبثها على شبكة الإنترنت، وحتى دون استئذانهم في ذلك، لأنهم

أسرة حسنة التربية والفهم والوعي، ويتمنون أن يذهب أي ثواب لوالدهم في مرقده، بأي صورة وأي طريقه، ولم يحجبوا علمه عن الناس بحجة حقوقهم، أو الرغبة في المتاجرة بكتب الوالد.

بنت الشاطئ تتهم مصر بالفشل

ما أقبح صورة العالم حينما يكون منافقًا.

وما أخس الأديب الذي يناط به أن يكون لواء الحرية في وطنه حينما يكون متملقًا.

شاء القدر منذ فترة يسيرة أن نشاهد على اليوتيوب حلقة فريدة من الستينات لم نشهدها من قبل ولم نكن نعلم بها..

يمكن أن تسمي هذه الحلقة بأنها سيمفونية من النفاق والتملق، وللأسف الأسيف، حينما نرى فارس هذا المشهد النتن، عالما من العلماء أو أديبا من الأدباء الكبار، له في نفوسنا مكانة وفي وعينا قيمة، فإننا نصاب بالخزي والحسرة.

بنت الشاطئ وما أدراك ما بنت الشاطئ تلك الأديبة اللامعة والعالمة المقتدرة، كانت تقف في مجلس الأمة تكيل المدح للزعيم المفدى وقد جعلت منه هدية السماء للأرض، وأوشكت أن تقول لولا بقية من دين: إنه يوحى إليه!

ومن المضحكات أنهم يصورون هذا المشهد بأنه من مشاهد الحرية التي تمتع بها عصر الزعيم ناصر، وكتبت قناة الناصريين معلقة على المشهد بقولهم : (سعة صدر الزعيم جمال عبد الناصر في مواجهة نقد بنت الشاطئ دكتورة عائشة عبد الرحمن)

فبنت الشاطئ تنتقده، وهو يستمع لها في صبر وتفهم.. ومن يتخيل مثل هذا الوهم، يكذب الحقيقة ولم يلتفت جيدًا للكلام، فهذه امرأة سبحت بحمد الزعيم، ومدحته هذا المدح الخارق، ومنحته من صور التزلف والإطراء مغلفة بأهازيج البيان، ما يجعل المستمع مشدوها لهذا التفرد في التهليل للحكام.

من حق العامة أن نعذرهم وهم يؤلهون الزعماء لجهلهم وقلة وعيهم، لكن ما بالنا نعذر أديبًا يتمرغ في دثار النفاق، وهو أكثر الناس فهما ووعيا وإدراكًا أن هذه المدائح التي تخرج بالممدوح من نطاق البشر، من أخطر الأضاليل والنتوءات التي تفسد سير الحكام.

تقول بنت الشاطئ في معرض خطبتها أمام السيد الرئيس: " وأنتهز هذه الفرصة لأقول: إن الرئيس جمال لم يولد سنة ٥٢، كلا ولا هو من مواليد القرن العشرين – سموا هذا الكلام عاطفيًا أو خياليًا، ولكني مؤمنة أن بلدي وأن هذه الأرض الطيبة ظلت تحاول أن تلد جمال مرة بعد مرة، هذه الأمة التي يصفونها بعدم الوعي ولدت جمال مرة في عرابي ثم لم توفق، ثم أعادت الكرة في مصطفى كامل ثم لم توفق،

وعادت فولدت سعد زغلول وعادت فولدت كل الفدائيين الذين حاربوا في القنال، وكل الفدائيين الذين انتقموا للشعب من أعدائه..."
ما هذا الكلام الذي قيل لا يمكن أن يفسر إلا أنه تزلف ممقوت، ومدح زائف يعطي ظهره للحقائق.
والحق أنه لا عاطفيا ولا خياليا ولكنه نفاقيا تملقيا.
ولعلها قالت كلاما جيدا يصب في صالح الاصلاح السياسي، وكلن هذا التقديم الوصولي أفسد على المرء استحسانه لما قالت.!
وهنا كلمة لابد منها
يتصور بعض الطيبين أننا نهدم الرموز ونفتش عن الهنات التي تفسد رؤية الناس للعظماء والمشاهير، لكننا والله نحترم الحرية، ونعشق نفوس الأحرار، بقدر ما نبغض النفاق والمنافقين.. وكل شخص في نظرنا مهما عظم حاله، لا يتعالى على النقد، بل هو في مرماه إذا صدر منه الخطأ.
والبعض الآخر يصرون أن لا يتركوا أقلامنا تعبر عما ترى وتؤمن، بل يريدون ذبحها بسكينهم الباردة، لتهرب من النقد، وتعتبره حراما عليها.. هم يريدون للعظماء أن تكون أصناما مقدسة، لا يجوز الاقتراب منها أو التعرض لها، بل هم يتصورون برؤيتهم أن مجرد نقد نوجهه لرمز من الرموز، هو هدم له، وهذا غير صحيح، وإذا كان من العامة أو بعض القراء من يتصور ذلك.. فنحن نقول له هنا: لا تمنعك مساوئ رجل من ذكر محاسنه، والعكس، فأنا أراك عظيمًا وأقدر فكرك وأدبك

وعلمك، لكنك لا تعجبني في هذا الموقف أو هذه الكلمة، وهذا هو منهج الأسوياء الذي يجب عليهم النظر به والتقويم بمقوماته.

عرفت أن بعض الناس يفصل بين الفكر والأدب من جانب، وبين الموقف السياسي من جانب آخر، وهذا منطق عجيب، كيف يصدر من متعلم؟! فرجل شاعر يمتدح الاحتلال أو يشيد بالمسؤولين الخونة والحكام الظلمة والمأجورين والعملاء بأبرع جمل البيان، إنه شاعر وأديب وبليغ، لكنه في المقام الأول خائن لوطنه ودينه وأمته.

خائن للحرية والإنسانية.

وأنا أعجب للمتقولين، هل رأوني يومًا أنكر بلاغة الشاعر أو أدب الأديب حتى تتعالى أصواتهم علي؟

إنني فقط أدرجه في باب المتملقين، أما الشعر فهو ربه، وفي الأدب معلم يشار إليه بالبنان.. ولا تعارض في هذا أبدًا بين تمييزه والحط به.

اعتراض المنابر

أعرف من نفسي طوال حياتي أن للجمعة حرمة في النفس، وأن المرء لا يسعه أن يتكلم أثناء الخطبة، وأن أي همسة أو غفلة قد تعرض المرء لضياع ثوابها وأجرها، لكن هناك أمورا قد تحدث من الخطيب، تخرج المرء عن شعوره، وتثير حفيظته وتحرك سواكنه، فيشب عن صمته

ويهيج ويصيح ويعترض، غير عابئ بحرمة مسجد، أو قداسة جمعة، أو مقام منبر.!

وقد يكون هذا الاعتراض انتصارا للحق، وقد يكون انتصارًا للباطل، وقد يكون دفاعا عن العلم والهدي، وقد يكون دفاعا عن الجهل، وتعصبا للهوى والخطأ.

واعتراض الخطيب على المنبر يصدر أحيانا من الأجلاف الغلاظ الذين لا يوقرون بشرا، ولا يعظمون دينا، ولا يحترمون ذوقا.. إلا أن بعض الخطباء قد يرمون عليك من قبيح كلامهم، ما يكون أثقل مما لو ألقي عليك زيت مغلي، أو قلب عليك تنور من القمامة العفنة.

سمعت مرة أحد الخطباء، كان قمة في الجهل والتزلف والنفاق، فلم أقدر أمام إفكه إلا أن أصب عليه اللعنات والويلات وهو يتدرج في نزوله، وكان ساعتها أبغض الناس إلى قلبي، وما أدراك حينما ينافق الامام ويأتي بالإفك والزور؟!

وكنا ندرس في فن الخطابة، مسألة سرعة البداهة وهي صفة عظيمة يجب للخطيب أن يتحلى بها ليكون ناجحا، لأنها تنقذه من المواقف المحرجة فلربما يعرض له عارض أو يحدث له حادث أثناء الخطبة يربكه ويقطع عليه تسلسل كلامه ويذهب عطر الخطبة ورونقها وتذهب بذلك الفائدة منها، وعندما يكون الخطيب سريع البديهة ينقذ نفسه من هذه المواقف بل ويحول هذه المواقف إلى شذرات جمال يرصع بها خطبته.

كان أحد الخطباء يخطب يوما بجمع من الناس فاعترض له أحدهم قائلا: هذا غير صحيح فأجاب الخطيب على الفور دونما خجل أو تردد: هذا رأيك؟ وتابع خطبته، وكان سيدنا علي بن أبي طالب يخطب فسأله سائل عن مسألة فرضية، فأجابه ارتجالا من غير تأمل: صار ثمن المرأة تسعا، ثم مضى في خطبته وسميت هذه المسألة بـ(المنبرية)

واعتراض المنابر في بعض تاريخنا كان أمرا متكررا، منه ما نعتز به ونتباهى بأخباره، ومنه ما ننكره ونشمئز منه.

وبعض الناس قد يفعل هذا الهرج للشهرة ونيل غرض من الأغراض التي تخلفها أمراض النفس والنفاق وحب الشهرة والذكر بين الناس.

ذكر الطبري في تاريخه أن المنصور خطب فقال الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فاعترضه معترض عن يمينه فقال أيها الانسان أذكرك من ذكرت به، فقطع الخطبة ثم قال: سمعا سمعا لمن حفظ عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا عنيدا وأن تأخذني العزة بالإثم لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، وأنت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر وأهون بها! ويلك لقد هممت فاعتبلها إذ غفرت وإياك وإياكم معشر الناس أختها... ثم عاد في خطبته.

وذُكر عن أبي الجوزاء أنه قال: قمت إلى أبي جعفر وهو يخطب ببغداد في مسجد المدينة على المنبر فقرأت: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) الصف:٢
فأُخذت فأُدخلت عليه فقال من أنت؟ ويلك! إنما أردت أن أقتلك فاخرج عني فلا أراك فخرجت من عنده سليما.
وكان علي رضي الله عنه يخطب في مسجد الكوفة فاعترضه الأشعث بن قيس كان الأشعث في أصحاب علي كعبد الله بن أبي ابن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل منهما رأس النفاق في زمنه، فقال يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك فخفض عليه السلام إليه بصره فقال ما يدريك ما علي مما لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين. حائك ابن حائك منافق بن كافر والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك وإن امرأ دل على قومه السيف. وساق إليهم الحتف. لحري أن يمقته الأقرب.
ومما يذكر للشيخ عبد الرشيد ابراهيم أنه ألقى كلمة وذكر فيها رأيه في تفسير قوله تعالى : (وفي سبيل الله) في سياق آية الزكاة ، وكان الشيخ يرى أن الآية تشمل كل سبل الخير ولا تقتصر على الجهاد فقط، فارتفعت الأصوات بين الحاضرين استنكارا لهذا القول ، وقال الناس : لم يسبق أن سمعنا من قبل مثل هذه الأقوال ، إنها لم تصدر من علماء الاسلام، إنك تخالف جمهور العلماء، وقال الناس : من هذا الرجل يجب

أن يخرج من المسجد، وعلت همهمات تقول: هذا الرجل ليس من العلماء.!

ولما أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦ هـ) زار الامام محمد رشيد رضا بلاد الشام واعترضه في دمشق، وهو يخطب على منبر الجامع الأموي، أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة، عاد على أثرها إلى مصر.

وهناك شخوص لا تقدر أبدا أن تعترضهم على المنبر وإن كانوا ينطقون بما يثير النفس، ويحرض الخاطر، ويستفز العزائم، وترى نفسك أمامهم مقيدا صامتا مستسلما خائفا مذعورا، وهو حال أهل العراق أما خطبة الحجاج الطاغية الشهير التي أنذرهم فيها وتوعدهم.

وأنا واحد من الناس الذين ليست لديهم الجرأة على اعتراض الخطيب مهما قال ما لا يعجبني رهبة للجمعة، وإعظاما للمنبر، ولا يسعني الا بعد النهاية أن أحاوره وأنتقد كلامه..

وأنا في هذا أتمثل موقف المرأة القرشية التي كانت في العهد الأول حينما كان عمر رضي الله عنه يتحدث في المهور فلما نزل اعترضته امرأة من قريش... فقالت له: يا أمر المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم. قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله يقول: وآتيتم إحداهن قنطاراً [النساء:٢٠]. فقال: اللهم غفرانك.! كل الناس أفقه من عمر.

ومن أخطر الاعتراضات التاريخية التي كنت أتمنى للمعترض وقتها أن يعترض الخطيب وهو على المنبر بدلا من اعتراضه بعد النزول من فوقه،

في ذلك الموقف الشهير الذ ذكره الشيخ أحمد شاكر رحمه الله عن والده محمد شاكر، وكيل الأزهر في مصر سابقاً، أن خطيباً مفوهًا فصيحًا كان يمدح أحد الأمراء في مصر عندما أكرم طه حسين الذي كان يطعن في القرآن وفي العربية، فلما جاء طه حسين إلى ذلك الأمير قام هذا الخطيب المفوه يمدح ذلك الأمير قائلا له:

جاءه الأعمى فما عبس بوجهه وما تولى

وهو يقصد من قوله هذا إساءة النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الله قال عن قصته عليه الصلاة والسلام مع أبن أم مكتوم " عبس وتولى أن جاءه الأعمى " فلما صلى الخطيب بالناس قام الشيخ محمد شاكر ، وقال للناس : أعيدوا صلاتكم فإن إمامكم قد كفر، لأنه تكلم بكلمة الكفر، قال الشيخ أحمد شاكر: ولم يدع الله لهذا المجرم جرمه في الدنيا قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى ، فأقسم بالله أنه رآه بعينه بعد بعض سنين ، بعد أن كان عالياً منتفخاً مستعزاً ، مهيناً ذليلاً خادماً على باب مسجد من مساجد القاهرة ، يتلقى نعال المصلين ليحفظها في ذلة وصغار.

مغفلون حتى يأذن الله

تعيش مغفلا طوال حياتك حتى يأذن الله سبحانه أن تأتي هذه اللحظة التي تعرف فيها الحقيقة وتكشف ما خفي عنك، وما تم التعمية عليك فيه من أقرب الأقربين.

خيانات فاجعة وطعنات في الظهر، ما كنت تتوقعها ابدا حتى يأذن الله بكشف الستر وجلاء العماية، فتأتي إليك الحقيقة زاحفة تطرق بابك دون عناء أو شقاء.

أحيانا تأتي من الصدفة الغريبة، وأحيانا تأتي من مجرد كلمة تقال ولو على سبيل الهرج والطرافة، وأحيانا أخرى يفرض عليك التدخل في أمر لا يعينك حتى يهديك إلى ما يعنيك في تلاحم مدهش تجزم معه أن الأمر بتدبير القادر سبحانه وأنه لم يكن مجرد صدفة أو من غرائب الأقدار.

صديقي وأخي الدكتور إبراهيم حسن قص علي من الغرائب التي واجهته في مهنته كطبيب أمرًا مدهشًا أحببت أن أحكيه لكم.

يقول:

كان لنا صديق نزوره أنا وزميل لي، وبينما هو يودعنا ونحن نزول على أدراج السلم، كان ولده الصغير يسير أمامنا، فقال له صاحبي مداعبًا:

- هل هذا ولدك؟

- نعم هو ابني.

- لكن هذا الولد لا يشبهك، -تلاقيك سارقة من مكان ما-

-أبدا والله دا ابني.

ولكن يبدو أن مجرد هذه الكلمات التي قيلت على سبيل المداعبة والمزاح والتهريج قد نالت من تفكير الأب الذي سارع إلى التحليل واستبيان الأمر والتحقيق فيه، حتى توصل فعلا إلى كشف خطير.

أجرى تحليل DNA وتبين أن الولد ليس منه ولا من زوجته.

فماذا حدث إذن وابن من هذا الغلام؟
يقول الدكتور إبراهيم: فوجئنا به يتصل بنا بعد مدة ليقول لنا: فعلا الولد –طلع مش إبني– وتم تبديله في المستشفى.
بقي أن تعلم أن هذا الطفل كان وقتها ابن (٧) سنوات، سبع سنوات كاملة وهذا الوالد يربي ولدا غير ولده وليس من صُلبه، حتى شاء الله أن يكشف له الأمر.
مع أن هذه الكلمات التي قيلت له، مجرد كلمات عادية يمكن أن تقال لأي أب لأن الغالب أن الأبناء لا يشبهون آباءهم، ليس هذا شرطا أساسا في أمور الخلقة والذرية، ومن يشبهون آباءهم قليلون جدا.. لكنها إرادة الله التي أعتبرها من أرزاق الله على العبد، أن يهديه إلى الحقيقة الخافية عنه.
لم يشأ الدكتور إبراهيم حينما رأى دهشتي من هذه القصة إلا أن يعاجلني بقصة أخرى أكثر دهشة وعجبًا.!
يقول: كنا مرة في الحضانة ومع طفلين حديثي الولادة فأخطأت الممرضة وأبدلت إسورة مكان إسورة وهي التي يكتب عليها اسم الطفل، فأدركناها ونحن جلوس واكتشفنا الخطأ، ولما جاء الأب قصصنا عليه الأمر والخطأ التي وقعت فيه الممرضة، وأخبرناه أننا تداركنا الموضوع وهذه هي ابنتك، ولكن إذا أردت التأكد، فإن المستشفى ستجري لك تحليل dna مجانا لأن الخطأ من الممرضة، فقال: لكنني أنجبت ولدا، فرد الأطباء عليه: لا إنما هي أنثى لا ذكر.

لم يكن أمام الوالد في ظلال هذه الحيرة المؤرقة إلا أن يوافق على إجراء التحليل حتى يتبين الأمر ويهتدي لطفله الحقيقي، وأجرت المستشفى التحليل على نفقتها، فماذا خرج في التحليل، وماذا قال التحليل؟

تم استخراج التحليل الذي أبان بأن البنت ليست ابنته ولكنها ابنتة زوجته؟!

الله أكبر .. مجرد خطأ بسيط وقعت فيه الممرضة وتم كشفه وتداركه، وكان بوسع الأطباء ألا يخبروه بشيء لأنه لا داعي لتناوله، فقد عالجوا الأمر وصححوا الخطأ.

ولكنها إرادة الله لهذا الرجل أن ينكشف أمامه ستر الخيانة.

ألا تعتبر معي أن كشف الحقيقة رزق من أرزاق الله يمنحه لمن يشاء؟!

جريمة الحديث عن النساء

كان الحديث عن النساء المسلمات في وقت من الأوقات التي مرت بها مصر جريمة من الجرائم الكبرى التي يمكن أن تودي بصاحبها وراء الشمس.

لكن المحزن في الأمر أن يكون حولك من الناس من يحقد عليك ويتربص بك الدوائر ليفسر كل عمل لك تفسيرًا يعود عليك بالأذية

والضرر، حتى إذا رأوك تصلي أو تحرص على قراءة القرآن وارتياد المساجد.

فإذا كان هناك من يضمر لك بغضًا ما أسهل أن يغرر بك ويضرك حينما قدمت له المادة الجاهزة التي يكتب بها بلاغًا سحيقًا يمكن أن يدمرك.

والمرء يتعجب من طبيعة هؤلاء الناس، أين ذهبت ضمائرهم وإيمانهم وإنسانيتهم؟

ألا يخشون الله، ألا يخافون عقابه، ألا يتقونه وهم يُقدمون على أذية الناس؟

كان أستاذنا البيومي -رحمه الله- واحدًا ممن تعرضوا لنيران هذا الحقد المخيف، ورغم ما عُرف عنه من سماحته ومسالمته ومجاملته إلا أن الحقد طاله وكاد أن يصطلي بنيرانه لولا نبل بعض الناس حينما يسوقهم الله كملائكة ينصرون عباده ويغيثونهم من خطر محدق وبلاء يحلق.

كان -رحمه الله- قد تعرض في كل مرحلة من حياته إلى مواقف متعنتة عصيبة أو محرجة وصدامية كان يمكن لها أن تكون ذا أثر غائر في إعاقة مستقبله وعزيمته، في مرحلة المعهد والكلية، حتى بعد تخرجه وعمله لم يسلم من هذه المواقف الخطيرة التي أفلت منها بفضل الله.

فكان مما تعرض له وقرأته عنه، وهو مدرس في معهد المعلمات بالإسكندرية بعد يوليو ١٩٥٢ لم يكن له أي نشاط سياسي أو حزبي، وليس محسوبًا أو مسجلًا على جماعة من الجماعات الدينية، وكانت فسحة الغذاء في اليوم المدرسي بالمعهد طويلة، وكان زملاؤه المدرسون

يجهزون خطبًا تمتد إلى الساعة ونصف الساعة لتشغل فترة الفسحة، يلقون فيها كلمات وطنية، وكان قد تكرر حديثهم عن ثورة الجيش، ومحو الإقطاع وإلغاء الألقاب، وحرب القناة.

رأى أن الطالبات ينسحبن ولا يسمعن، فإن الحديث المكرر صباحًا ومساءً وفي الظهيرة، قد أدخل السأم على نفوسهن، فراح البيومي يحاضر في يومه الأسبوعي عن الشهيرات من نساء الإسلام، كعائشة وخديجة والخيزران وزبيدة والخنساء، فوجد إقبالًا منقطع النظير.

وكأن أحد الزملاء غاظه هذا التوفيق؛ فكتب إلى المباحث خطابًا مجهول التوقيع يقول إنه معروف بميوله الخاصة للإخوان المسلمين؛ لذلك لم يتحدث عن أعمال الثورة المجيدة.

ترك الخطاب أثره فإذا بزائر رسمي يأتي إلى مكتب عميدة معهد المعلمات ليسألها عن ميوله الإخوانية، فتشجعت العميدة شجاعة باسلة، وقالت: لم أعرف عنه ولم أسمع عنه إلا كل ولاء وتقدير للثورة، ولو شممت منه ما يدل على انحرافه لكنت أول مطالبة باستبعاده! قال الزائر:

ولكنه لم يتحدث إلا عن النساء المسلمات مثل عائشة وخديجة، ولم يكن كبقية الزملاء، فابتسمت وقالت في وداعة:

الطالبات شكون لي أن الحديث متكرر يسمعنه في الإذاعة المدرسية والإذاعة العامة، ويقرأنه في الجرائد اليومية، وهن لا يستفدن منه.

وأمام هذه الشكوى طلبت من الأستاذ أن يختار شخصيات نسائية من التاريخ لتجبر الطالبات على الاستماع ولا يتهربن وقام بتوجيهي

بالحديث عن هؤلاء فصادف حسن القبول، فإذا أردتم أن أمنعه فلكم ما تشاؤن فقد تحدث بأمري وتوجيهي.

قال الزائر: حديثك معقول.. وهنا قالت:

هل هناك صلة بين عائشة والخنساء، والإخوان المسلمين؟ إنني لا أجد صلة إطلاقًا فخرج الزائر دون أن يستجوبه، وعلم البيومي بما كان من وكيلة الدار، فهرع إلى السيدة الفاضلة يشكرها، فقالت:

لقد أطفأت النار يا رجب، وأعفيتك من المحاضرات نهائيًا، حضر الطالبات أم لم يحضرن.

لفت نظري في هذا الأمر روعة المرأة وبراعتها حينما تتولى القيادة، والتي كانت على مستوى الموقف أعظم وأسمى من كثير من الرجال يمكن أن يكونوا بلاء على من يديرونهم.

كانت المرأة شجاعة مبادرة سارعت لنفي التهمة وتبرير الموقف، لكي لا يطال مدرسها أي أذى، وهناك مدراء يعشقون أذية من يلونهم وتحت أيديهم من الموظفين، لكنه موقف شاء التاريخ أن يسجله لهذه السيدة، وتكون صاحبة جميل على أستاذنا وشيخنا البيومي -رحمه الله- .

ما أنا.. لا.. من أنا

دعني أقول لك: ليس شرطا أن تكون مفكرا أو أديبا أو عالما أو زعيما أو قائدا حتى يتسنى لك أن تكتب سيرتك الذاتية، وهنا اسمح لي أن أقول لك ثانية: يكفي في هذا أن تكون إنسانا.!

نعم فبعض الناس ممن نراهم حولنا ونطلق عليهم عاديون، نرى في جعبة أيامهم وحكاياتهم ومواقف أيامهم حشودا هائلة من العجائب والطرائف، والتي لو وجد هناك من يدونها لهم لخرجت أعظم سيرة ذاتية تبهر الألباب والأذواق.

أعرف صديقا لي كان لديه مخزون هائل من مواقف الزمن ومشاهد الحياة، وكنت أحيانا أجلس إليه وأستمع له وأجعل منه مادة لكتاباتي دون أن يشعر.

وهناك أناس كلما عرضت عليهم أن يكتبوا سيرتهم الذاتية يقولون لك: من أنا لكي أكتب سيرتي الذاتية.

ياعزيز ليس شرطا أن تكون قد صعدت إلى القمر أو حررت القدس أو نلت نوبل حتى تكون مؤهلا لكتابة السيرة الذاتية.

فهناك من تضج حياتهم بالزخم الكبير الذي يفوق حياة حتى من صعدوا إلى القمر ونالوا نوبل.

النجاح شيء والسيرة الذاتية شيء آخر.

بل ليس شرطا في السيرة الذاتية أن تكون مواقف أو أحدث مدهشة تعج بالغرائب المثيرة، إذ يمكن للسيرة الذاتية أن تأخذ ألوانا أخرى كأن

تكون تعبيرا عن تأملات أو خواطر عاشها أو أحسها الإنسان وتأثر بها وجدانه وعاطفته ومشاعره.

ومن الملفت أننا نجد بعض الشخصيات قد كتب سيرته التي صفق لها الجميع من باب الصدفة، ولم يكن أبدا في حسبانه أن يكتب يوما سيرته الذاتية، وما أن كتبها حتى كانت معلما عليه، وصارت أعظم ما أنجزه وحققه من تراث حياته.

فهذا الشيخ الغزالي رحمه الله وقد حثه الأستاذ عبد الوهاب مطاوع أن يكتب سيرته إلا أنه رفض الفكرة متعللا بأي علة، ثم مات وظهرت له سيرة مختصرة من (٦٠) صفحة ما أن تقرأها وتنتهي منها في جلسة واحدة، حتى تأخذك الحسرة أن الشيخ لم يكملها في كتاب ضخم من فرط جمالها وروعة سردها وجميل مواقفها.

في العام الماضي كانت لي تجربة مع سيدي المستشار الجليل بها المري، حينما عرضت عليه أن يكتب مذكراته بحكم كونه أديب بليغ فخم العبارة فصيح البيان، ووجدت منه نفس ما يتقول به الكثيرون فيقول لي: من أنا حتى أكتب مذكراتي.. إن حياتي هي أمي وأمي هي كل حياتي، فلما قال ذلك، قلت له ولو كان.. أليس من تحقها عليك أن تكتب أيامها وحسن تربيتها لك؟!

وهنا لم أدرك أنني قد لعبت على الوتر الذي يهتز له فؤاده، ونقطة الضعف في عاطفته التي لا يمكن أن يقاومها أو يتملص منها

باعتراض، إنها أمه التي أحبها حبا منقطع النظير وكانت روحه ومهجة قلبه.

صمت الرجل وانقطع الحديث بيني وبينه، ثم إذا به يفاجئني بعشرات الصفحات التي كتبها لتكون بداية لسيرته الذاتية، والتي جرت إلى مئات الصفحات التي جعلت منها سيرة ذاتية ثرية من العيار الثقيل.

ولعلي هنا كان موقفي شبيها بموقف بالأستاذ الصحفي زهير الأيوبي محرر مجلة المسلمون الذي كان سببها في كتابة مذكرات بلغت بلغت (مجلدات في قرابة (٤٠٠٠) آلاف صفحة للأديب والعالم الكبير الشيخ علي الطنطاوي، لم يكن مرتب لها، ولم يكن أبدا في حسبانه أن يكتبها، بل على العكس حينما عرضت عليه الفكرة من الأستاذ زهير الأيوبي قابلها برفض شديد ولكن الرجل لم ييأس وظل يتابعه ويلح عليه حتى كتب هذا العدد الضخم من مذكراته التي تفوح رقة وعذوبة.!

بل كان الشيخ يعتقد حينما وافق أنه سيحكي حياته في حلقة أو حلقتين تنشرهما المجلة، فإذا بنهر الذكريات يتدفق على عقل الشيخ وتدب فيه الحماسة للكلام عن حياته ومعها عن حقبة مهمة من تاريخ سوريا والبلدان العربية والإسلامية حتى اكتملت الذكريات في ثمانية مجلدات متاحة الآن في صورتها الورقية، وعلى شبكة الإنترنت، سواء بسواء !

يقول الأستاذ الطنطاوي: "ثم أحالتني الأيام على التقاعد، فودعت قلمي كما يودع المحتضر، وغسلته من آثار المداد كما يُغسل من مات، ثم لففته بمثل الكفن وجعلت له من أعماق الخزانة قبراً كالذي يدفن فيه

الأموات، حتى جاءني من سنة واحدة أخ عزيز، هو في السن صغير مثل ولدي، ولكنه في الفضل كبير، فما زال بي يفتلني في الذروة والغارب (كما كان يقول الأولون)، يحاصرني باللفظ الحلو، والحجة المقنعة، والإلحاح المقبول؛ يريدني على أن أعود إلى الميت فأنفض عنه التراب وأمزق من حوله الكفن، وأنا أحاول أن أتخلص وأن أتملص، حتى عجزت فوافقت على أن أكتب عنده ذكرياتي. فيا زهير: أشكرك؛ فلولاك ما كتبت) يقول أحد الكتاب: "فلنتأمل كيف لو أن المحرر أو الناشر قنع بالرفض من صاحب السيرة ولم يلح ولم يقنع، وكيف كنا سنخسر اليوم هذا الكنز الثمين من التاريخ والأدب.؟!"

بل هل تتخيل وأنا أحدثك اليوم عن أمر المذكرات أن (الأيام) والتي تعد أشهر سيرة ذاتية في حياتنا الأدبية وهي قصة عميد الأدب العربي طه حسين، جاءت من قبيل الصدفة والحاجة ولم يعمد يوما أو يفكر أن يكتب مذكراته؟!

نعم هكذا جاءت الأيام وكانت قصتها.!

ذكر الأديب والصحفي المخضرم بدار الهلال الأستاذ أحد زكي عبد الحليم في مقالة له بعنوان (طه حسين .. بخمسة جنيهات!) أن الدكتور طه حسين حينما فقد مكانته الجامعية المرموقة بسبب أزمة كتاب الشعر الجاهلي، والتي ترتب عليها مواقف معارضة ومستهجنة انتهت به إلى العزلة وصار مهددا في مصدر رزقه.

وقتها لم يكن الدكتور طه حسين من كتاب مجلة الهلال، ولكن الأستاذ إميل زيدان أحد صاحبي دار الهلال رأى أنه من التقدير أن يقف إلى جانب الرجل في محنته، وذهب إليه في بيته ليعرض عليه أن يكتب مقالاً شهرياً في الهلال مقابل خمسة جنيهات، وهو في ذلك الوقت مبلغ كبير لا يحصل عليه إلا عباس محمود العقاد، كاتب الهلال الأول، وكانت وجهة نظر أصحاب الهلال أن هذا المبلغ يعينه على الحياة بعد أن تقطعت به أسبابها.

ولكن الدكتور طه كان يعاني في هذه الفترة من أزمة نفسية حادة، وقبل العرض ولكنه لم يكن يدري ماذا يكتب مع هذا الضغط النفسي الهائل؟ كما أنه محظور عليه كذلك أن يكتب في الصحف أي رأي في الدب والفكر فالدنيا كلها هائجة بسببه.

وأخيراً خطر له أن يكتب عن ذكرياته وبعض أيامه الماضية وكأنه يستعيض بذكريات الماضي، رغم مرارته، عن الحاضر بكل ما فيه، وعن المستقبل بكل ما يمكن أن يحمله.

ويمضي الأستاذ عبد الحليم قائلاً: "وما كاد طه حسين يبدأ الكتابة حتى تحولت الكتابة من مجرد خواطر وذكريات إلى عمل أدبي رائع، ما زال مسائلاً أمام أعين كل الأجيال الثقافية، وهو كتاب (الأيام) !"

والحق أن المنحة كانت وليدة المحنة، ونتج عنها أروع ما كتب في السيرة الذاتية عن إنسان تحدى الصعب والمرار حتى وصل إلى قمة الهرم.

أما أنا فقد كان أبي رحمه الله أو كنت أنا أراه واحدا من هؤلاء الذين تعج حياتهم بما يستحق أن يكتب، وقد كنت أحفزه بين الحين والحين إلى هذه الخطوة ولكنه كان من المسوفين، وظل كذلك يقول سأكتب مذكراتي، إلى أن مات ولم يكتب شيئا.

وكذلك مما آسى له كثيرا أنني وقد كنت وثيق الصلة بالعلامة الكبير فضيلة الدكتور (محمود عمارة) وهو من أكبر الأدباء وأفصح الدعاة الذين تحدثوا بلسان الأديب، وكنت وقتها شاب صغير لم تكن لي ما أراه اليوم من مدارك العقل، ولو أنني أدركت أيامه وأنا على ما أنا عليه اليوم، لاستخرجت منه الكثير والكثير مما تنتشي له أذواق القراء من ذكريات أيامه وشواهد حياته.

وأحب في هذا الموطن أن أقول: أن الأزهر الشريف بعلمائه ودعاته ورموزه، وكل مثقفي مصر وأدبائها ومفكريها، والمكتبة العربية برمتها يشدون على أيدي مولانا الدكتور النبوي شعلان، لينجز مذكراته ويستحثونه أن يحشد إليها كل طاقته ووقته وجهده حتى يتمها.. فالدكتور النبوي منذ أمد بعيد بصدد كتابة مذكراته التي يراد لها أن تخرج إلى النور تحت عنوان (وحي الالم أكثر من نصف قرن تحت العمامة وبين أصحابها)

وأنا لا أعبر بهذه الحفاوة البالغة لهذه المذكرات، لأنني أحب الدكتور النبوي، أو أنه بتواضعه الجم يضعني في مقام الابن له، أو أنه بلدياتي الذي نفتخر به، ولكن لأن من يستمع إلى الدكتور النبوي وهو يروي

مساجلات أيامه، يوقن أن هذا الرجل قد خاض ملاحم الحياة محاطا بالعجائب مصاحبا للمدهشات والغرائب، بل تدرك أن لديه لا يمكن أن تجده عند الآخرين من الوقوف على الأخبار والحقائق لكثير من محطات الحياة وحوادث الدهر.

كلي شغف سيدي لقراءة هذه المذكرات.

لك يوم يا ظالم

ما رأيت أحد مكنه الله من عدوه وخصمه ولو بعد حين، كما رأيت من حال شيخنا الدكتور (النبوي شعلان) أمد الله في عمره وعمله، مما يحكيه لي من تصاريف القدر التي تُشبه الأساطير والأعاجيب المدهشة.

فقد كان على مدار حياته، كلما عدا عليه عاد أو ظلمه ظالم، تدور به الأيام ليضع الله بين يديه هذا الظالم وهو في قمة الضعف والانكسار، وكأن الله تعالى بقدرته يقول له: هيا يا نبوي خذ حقك وانتقم لنفسك، واقتص من ظالمك، وأحيانا كان شيخنا فعلا ينتقم، لكنه في أغلب المواقف يعفو ويصفح، لأن العجب من تصاريف القدر وقتها، يكون أبلغ وأعلى من أي انتقام.

كان مما قصه لي حكاية غريبة تشهد بقدرة الله القوي الغالب المنتقم، إذ كان حفظه الله وهو طالب في سن ١٦ في امتحان الشهادة الابتدائية الأزهرية عام ١٩٥٤ يجلس في لجنة الامتحان وعليه مراقبان، ثم ما لبثا

أن جاءهما مراقب ثالث فيه طفح من ثقل الظل وظلام الروح، ولما جاء الاختبار الشفوي للقرآن الكريم قال له ذلك المراقب: اتل يا فتى من أول قوله تعالى:(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار)، فقال له التلميذ النبوي: هل تريد التي في البقرة أم التي في آل عمران؟ لم يكن يعلم الشيخ بالاية الثانية، وطلب من الفتى أن يريه إياها، فلما أراه.. اعتبر الشيخ المراقب أن هذا الصنيع تجهيلا له وتعالما من التلميذ على مكانته ووقاحة منه على شخصه، وبدلا من أن يفرح بيقظة التلميذ الصغير، أراد أن يعاقبه على فطنته التي عدها جرأة منه وتحديا، فأخذ يعصره عصرا في امتحان القرآن من أوله إلى أخره، يسأل السؤال يعقبه السؤال، والفتى يجيب بما أعانه الله من حافظته التي لم تخطئه في الرد على كل أسئلة الشيخ الذي تمنى أن يكسر زهوه بحفظه للقرآن، ولما أدرك المراقب الظالم أن ذلك بعيد المنال، قال للتلميذ: افتح كتاب النحو وأخذ يسأله فيه وفي قواعده وأمثلته والفتى يجيب ولا يتلعثم، كان كتاب شذور الذهب لابن هشام في النحو، وسأله في (باب قبل وبعد) وفي باب (إعمال اسم الفاعل)، وهنا يدهم الفتى النبوي مغصًا كلويا شديدًا، إذ كان يعاني من حصوات بالكلى، فطلب الاذن من هذا الشيخ لحاجته دخول الحمام، فأذن له وقال له: إياك أن تظن أنك ستهرب مني؟ سأصلي الظهر وآتي لأُنهي عليك.. ودخل التلميذ النبوي دورة المياه وخرجت منها حصاة كبيرة أعقبتها دماء غزيرة ملأت الأرض، فغسل ملابسه ويديه على الحوض، وإذا بالشيخ المتسلط يدخل

الحمام ليتوضأ فوجد هذه الدماء فقال له: ما هذا يا فتى، فقال النبوي: أنا نزلت -حصوايه- يا مولانا وبعدها نزفت هذه الدماء، فنظر إليه وقال له كلمة أثرت في نفس الفتى وما زال يتذكرها لهذا الشيخ البغيض إلى اليوم حينما قال له: هذا دم الحيض.!

كان الرجل ورغم كونه أزهريا معمما ويقرأ القرآن وعلوم الدين، إلا أنه كان وقحا حقيرا فظا غليظا لا رحمة في قلبه ولا لين يرفق به من تحت يديه من عباد الله.

كان الفتى مرهقا وكأنه خرج من عملية جراحية، فرآه فراش المعهد من قريته وبلدياته، فلف جسده ببطانية وأقعده على السرير وقال له: انتظر هنا حتى يأتي الشيخ ليكمل معك، فما لبث بضع دقائق حتى جاء المعلم الطاغية والتفت إلى التلميذ وقال: تعالى حتى أُشطب عليه.. كان الجو شتاء وجسد الفتى يرتعد من البرد، ولم تكن كل هذه المظاهر المؤرقة تشفع للصبي الصغير في نفس هذا الجبار العتي أن يتركه ويرحمه، وأخذ يختبره في كتاب النحو فلما انتهى منه دلف إلى كتاب المطالعة والمحفوظات، وقال له: حافظ المحفوظات يا ولد؟ فقال له النبوي: نعم..

وهنا تيقظت في نفس الفتى شيء من الثورة على هذا الظلم والتجني، وألحت في خاطره روح التمرد، وعلى حسب قوله لي: - أنا لقيت المسألة بوخت فقلت زي ما تيجي بأه-

فلما طلب مني أن أتل عليه شيئا من المحفوظات، اخترت أبياتا من قصيدة علي بن الجهم وكأنني أقصده بها، لأنها تطابق أوصافه وأفعاله وحاله فقلت له: يقول علي بن الجهم:

لا تقف للزمان في منزل الضيم ولا تستكن لرقة حال
واهن نفسك الكريمة للموت وقحم بها على الاهوال
فلعمري للموت ازين للحر من الذل ضارعا للرجال
اي ماء يدور في وجهك الحر اذا ما امتهنته بالسؤال

يقول شيخنا النبوي: انتهى اللقاء وحينما ظهرت النتيجة كأنه قتلني، فقد أعطاني النهايات الصغرى في القرآن والنحو والمطالعة والمحفوظات وما كنت أستحق ذلك.

وتدور الأيام وتنقضي العقود وتنطوي السنون، ويعين عضوا فنيًا في تفتيش اللغة العربية بالإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية، وكان له زميل مدرس بمعهد الحوامدية يريد أن يسافر إعارة إلى باكستان، ولكن شيخ المعهد كتب فيه تقريرا جيدا في أول السنة وأعبقه بتقرير سيء بعد ٢٠ يوما من التقرير الاول، والذي يعد بهذه الطريقة مزورا يحال للمساءلة القانونية، فتحدث الصديق المُعلم إلى صديقه النبوي بحكم موقعه في التفتيش، أن يحل له الأمر ويجد طريقة يقنع بها شيخ المعهد حتى يتركه للسفر، لأنه لو كتب فيه تقريرا سيئا فلن يتم اختياره للسفر، وسأله النبوي: لماذا يمنعك من السفر ويكتب فيك تقريرا سيئا؟ هل صنعت شيئا ضايقه؟ فقال: في العام الماضي درست لولده مادة اللغة العربية في

الثانوية دون أجر وجاء مجموعه ٤٥ من ٥٠ ، وفي هذا العام طلب مني أن أدرس لابنته، فدرست لابنته حتى الشهر الماضي، ثم أخبرته أن لدي امتحان ماجستير هذا العام يشغلني عن أداء الدرس، فعلمت من باش كاتب المعهد، أنه كتب تقريرًا أخر سيئًا بعدما أخبرته برغبتي.

قال له النبوي: -مش ممكن دا كده يودي نفسه في داهية-

وكان هذا الصديق زميلا للشيخ النبوي في مرحلة الدراسات العليا بالماجستير وقتها، فأراد النبوي أن ينجز مهمة صديقة ويحل الأمر حتى ينجز له مصلحته.

واستطاع النبوي أن يطلع على التقارير السرية من زملائه بالتفتيش، فأخبروه بأن شيخ المعهد كتب تقريرا جيدا في أول السنة عن صاحبك ثم أعقبه بتقرير سيء بعد عشرين يوما فقط، مما يعرضه للمساءلة القانونية، ونصحوه أن يخبر صديقه بأن يتقدم بشكوى للمدير العام بأنه نمى إلى علمه أن شيخ المعهد كتب فيه تقريرين مختلفين وأنه يطلب التحقيق في الأمر، وبالفعل كتب الصديق المعلم شكواه، وأمر المدير العام بتشكيل لجنة للتحقيق في الأمر وكان من هذه اللجنة، وبسرعة استدعي شيخ المعهد للتحقيق في الادارة المركزية في موعد أقصاه أسبوع من تاريخه.

يقول الدكتور النبوي: وبينما أنا جالس في مكتبي، وجدت شيخ المعهد يدخل علي وكانت المفاجأة أنه هو نفسه الشيخ الظالم المفتري الذي امتحنني في الشهادة الابتدائية، وأراني قسوة لم أر مثلها في حياتي.. كانت

صدفة عجيبة وغريبة ما كنت أتوقعها أبدا، وإذا به يدخل مكتبي ويجلس على الكرسي المقابل لي، فصحت فيه بصوت عال: قم واقف هل أذنت لك أن تجلس يا ضلالي يا حرامي؟ كان الصوت عاليا جدا غاضبا جدا، مما لفت انتباه الزملاء من المشايخ الذين هرولوا إلي يهدؤون من روعي ويقولون لي: ماذا جرى يا شيخ نبوي عيب يا شيخ نبوي فيه إيه؟

فقلت لهم ستعرفون الان قبل بدء التحقيق، حينما أحكي لكم قصة هذا الرجل.

هل تذكر حينما ذهبت وكيلا للجنة امتحان الشهادة الابتدائية الازهرية في معهد منوف الديني عام ١٩٥٤؟

فرد الرجل مذعورا: أنا مش فاكر.

فقال له: لكنني أنا فاكر.. هل تذكر ما فعلته معي في كذا وكذا وكذا، وقص حكايته المؤلمة على كل الحضور من ألوها إلى آخرها.

وهنا فزع الجمع الحاضر مما سمعوا ورددوا جميعا قولهم: يا خبر اسود.

ولما جرى التحقيق واعترف الشيخ بمخالفاته قالوا له: ما لحل في جرمك إذن، صمت الرجل ونظر إلى الأرض، وهنا يخرج الدكتور النبوي عن صمته ويقول للجنة: أنا لو منكم لفصلته من وظيفته لأنه صورة سيئة للأزهر والأزهريين فهو غير أمين.

وعزل الرجل من مشيخة المعهد، وكتب في التحقيق: لا يترقى مرة أخرى أي عمل إداري نظرًا لعدم أمانته.

كان الرجل في حالة ذهول، فلم يكن يتخيل أن يكون عقاب الله له بعد هذا الزمن الطويل وعلى يد الضحية التي تمثلت يومها في تلميذ مسكين هزيل ضعيف، فإذا به اليوم أسد له أنياب ينهش فيه، ويذيقه مرارة ما أذاقه للناس من ظلم وبطش وقسوة.

لم تكن فجيعة الرجل في الحكم الذي صدر، بقدر دهشته بهذه الضربة التي وجهها له القدر فعرته وفضحته بين الناس.. فكان حقا كما يقولون: لك يوم يا ظالم.

وقد تبدو القصة مؤثرة، لكنك حينما تسمعها من الدكتور النبوي، تشعر بأساها البالغ وهو يرويها بصوت مؤثر حزين.

لا تمنعونا من واجبنا

هذه كلمات فرضها علينا الواقع المعيب لبعض العقول والأفهام، وكان لابد للقلم أن يكتب ويبين.

في كثير من القضايا التي نثيرها ونظهر فيها وجه الحق من الباطل، وقد تعلقت بأناس رحلوا عن الحياة وفارقوا الدنيا، يريد بعض القراء أن يحرموا علينا البحث فيها وذكر أصحابها أو الحكم عليهم فيما أثاروه من قضايا الفكر والأدب والدين، ويظن الظان حينما نذكر خطأ راحل من الراحلين، ونظهر هناته في الثوابت والنظريات، أننا نحكم عليه بالكفر والإيمان ودخول الجنة أوالنار، والحق أنني في دهش من حال هؤلاء،

فكيف سولت لهم عقولهم أننا قد انجررنا لساحة المصير والحكم بالجنة والنار على أحد، ان هذا من خصائص الإله العظيم ولا شأن للبشر في شيء من هذا أبدا.

لكن هذا الراحل، قد خلق أزمة ثقافية، وكان لابد لنا من البت فيها، وحينما نتحدث عنه ونظهر عوار فهمه، وزور وقعه، فإننا لا شأن لنا بمصيره بين يدي ربه، نحن فقط نحكم على أمر علمي ثقافي، وقد يكون هذا الذي حكمنا بخطئه وزيفه، قد تاب توبة عظيمة بينه وبين ربه، وقد يكون الله تعالى قد من عليه وقبلها منه، وجعل مكانته في أعلى عليين، ولكن هذا حاله مع الله، ولا شأن لنا به، أما ما تركه من مفاسد فإن الله تعالى لا يرضى أبدا أن نصمت عنها، بل علينا أن نبصر الناس بمخاطرها ومفاسد صاحبها، وهذا أبدا لا يناقض مقامه المقبول عند الله، وهذه هي الإشكالية التي لا يستطيع كثير من الناس تفهمها، علينا أن نؤدي واجبنا نحو ما طرح، أما حال الراحل مع الله فليكن ما يكون فلا شأن لنا به.

كم يصيبني الهلع حينما أجد تعليقا من قارئ يقول: لقد أفضى إلى ما قدم وقوله: وما أدراك لعله عند الله أفضل منك.

وقول ثالث: أنت لا تعلم ما بينه وبين الله لعله تاب وقبل توبته.

وهذه الأقاويل العجيبة التي تجرنا إلى ساحة أخرى غريبة لا شأن لنا بها، ولا ننكرها ولا مسسناها بقول، ولا أنكرناها بلفظ.

ولكن أصحابها لا يستطيعون تفهم المراد فيما نثيره ونتحدث عنه.

لنا الظاهر والله تعالى يتولى السرائر.
نحن فقط نؤدي وظيفتنا وواجبنا نحو الحق، وعند الحديث عن الجنة والنار والتوبة والإنابة، فلا شأن لنا بها ولا حديث نطرحه بحيالها.
ولو أننا صمتنا على جريمة راحل، وحرمنا الحديث عنها والحوم حول زورها، لربما اتبعه في ضلاله خلق كثيرون، فتكون اللائمة علينا نحن أمام خالقنا حينما يقول لنا: كيف خسرت ألسنتكم عن قول الحق في هذا الباطل؟
هل ساعتها نقول له: يا رب لقد ظننا أنه تاب إليك وأنك قبلت توبته؟
هذا لا شك كلام ورد قبيح أعور لا يفهم ولا يعي من الحقائق شيئا.
وأنت أيها الكاتب الراحل الذي أنكرت الثوابت وحاربت الله ورسوله ليكن مصيرك عند ربك في أعلى عليين، ولتكن لك الفردوس الأعلى، ولتكن بينك وبين الله توبة لا يعلمها أحد، فلا شأن لنا بكل هذا، إن واجبنا الأول أن ندحر ما أظهرت من زيف وفساد، ونرد ما نشرت من قبح وضلال، فهل عقل المعترضون؟
إن الله سبحانه قد وضع الفارق سلفا بين السيئة والمسيء وفرق بينهما..
قال تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن السيئة"..
إنها السيئة إذن ما يدور عليها فلك العراك، ولم يقل: المسيء
إن أهوجا يخرج على الناس فيزعم مما قرأ لي: أنني أكفر الناس وأهين الرموز وأحكم على مصائرهم، وهو قول نكر، ما دعى إليه إلا قصور فهم وقلم إدراك.

لا تطالبوني بالمراجع

أذكر أن أحد الذين تناولوا كتابي عن الراحل عبد الوهاب مطاوع في الاحتفالية التي أقامها صالون غادة صلاح الدين بالقاهرة، قد نقد الكتاب بأنه يعيب عليه شيء واحد فقط وهو أنه لا يوجد به مراجع، والحق أنني تعجبت كثيرا من هذا لأنني سقت رغما عني بعض المراجع لأكثر من ٨٥٪ من الفقرات والأحداث الواردة عن الأستاذ عبد الوهاب، ولم أفرد للمراجع صفحة خاصة في نهايته.

ولعل الإشكال لدى الناقد الكريم أنه لم يفطن إلى نوعية الكتاب وعنصره، فهو من باب التراجم الأدبية لا التاريخية، وهناك فرق كبير بين الكتابة بروح الأدب وبمنهجية التاريخ، فالكتابة الأدبية غير ملزمة بإيراد المراجع عن الشخصية المترجمة، فمنهجيتها تقوم على السياحة في عالم المترجم عنه، ورصد المعالم الإنسانية والنفسية في حياته، أما الكتب التاريخية التي أحدثت التضارب في ذهنية الناقد، فإنها تفقد رونقها وقيمتها ان تخلت عن تسجيل المصادر والمراجع التي استقى منها المؤرخ دلالاته.

وهي لفتة نقدية لا يجب أن تمر على من تصدر للحديث عن كتاب وتقويمه.

وأنت إذا استتبعت كثيرا من كتابات الأدباء حول الشخصيات والترجمات لوجدتها خالية متجردة من ذكر المراجع، لأنها عمل أدبي، لا غير ملزم كما أشرت بهذه المسألة، ولعلي أذكر تلك المقارنة الرائعة التي عقدها الأستاذ أحمد أمين بين كتاب أبي بكر الصديق لهيكل باشا، وبين عبقرية عمر للأستاذ العقاد، وبعد أن تحدث عن السمات الأدبية في كتابة التاريخ بين الرجلين، ذكر المنهجية العلمية التي اتبعها هيكل ، والمنهجية النفسية التي اتبعها العقاد، فهذا كتب بلون العلم، والآخر كتب بروح الفنان، ولهذا ذكر هيكل مراجعه، ولم يذكر العقاد مراجعه، لأن عمله عمل الأديب في المقام الأول.

وإذا كان هناك عمل أدبي وعمل تاريخي، فهناك نوع ثالث وهو عمل أدبي تاريخي، كالرواية والقصة التاريخية، التي لا تدخل تحت باب التاريخ رغم كونها تتناول أموره، وتمتد من رواقه، إلا أنها في الأخير محسوبة على دنيا الأدب لا عالم التاريخ، ومن ثم يفقد العمل التاريخي قيمته لو تجرد من المراجع والمصادر، أما العمل الأدبي فمحصن من هذا الفقد.

وإني لأتعجب من بعض كتاب الرواية التاريخية، وهم يكتبون مصادرهم في النهاية، وكأن ما كتبوا بحث تاريخي لا أدبي، إنهم غير ملزمين بذلك، ولا يطالبهم أحد بذلك، فلهم مطلق الشطط فيما يوردون، ولكنه الشطط المتوازن المقدر لا الظالم المتجني.

ومن طرائف أمر المراجع التاريخية، التي فقدت قيمتها وأمانتها ومصداقيتها حينما فقدت الإشارة للمراجع، فقد قرأ شيخنا البيومي كتابا تاريخيا، يتناول بعض التراجم للشخصيات التاريخية، ولما جاء الحديث عن عمر رضي الله عنه، تناول الكاتب وكان من أصحاب الأغراض، تناول فرية حريق الإسكندرية، وادعا زورا على الأستاذ العقاد أنه نسب حريق الإسكندرية إلى عمر رضي الله عنه، وهنا يتعجب البيومي، وهو يعرف عن الأستاذ العقاد، غيرته الإسلامية ، فكيف ينسب إليه مثل هذا التلفيق، نظر البيومي إلى المراجع، فلم يجد في هذه النقطة بالتحديد، أي مرجع مذكور، مع أن الكتاب أشار إلى المراجع في كل ما استشهد من فقرات، إلا هذا الكلام الذي زعم أن العقاد قاله، وحينما رجع البيومي سريعا إلى كتاب عبقرية عمر، وجد الكلام مثبوتًا بالفعل، ولكن ثباته ووجوده ليس بالطريقة التي ساقها هذا الكتاب الكذاب، فبعدما دافع العقاد عن نسبة الفرية إلى عمر بن الخطاب، وبعدما ساق من الأدلة ما بدد شبهات المرجفين، أخذ في مقارنة عقلية، يلتمس العذر فيها لسيدنا عمر لو أنه فعلا ثبت له أنه هو من أحرق المكتبة، فقال:

وإننا على الرغم من كل هذا، أي من جميع الأدلة التي ذكرها ذكرها خاصة بنفي المسألة عن عمر، نفرض أنه أي عمر، أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر، ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها، ويجب عليه أن يستبقيها وتفتح أبوابها، بل قال:" أمن

النقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعصر اليونان فلا يطلع إلا على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ان صح أنهم حفظوها؟! لقد كان أهلها على شر حال من الضعف والفساد والهزيمة والشقاق والتهالك ، وإذا كانت أحوال هذه الأمم لا تدل على قيمة هذه الكتب ، بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من أي قيمة، فأين هو العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على هذا المنوال وأمر بحرقها؟"

لقد كان العقاد إذن يلتمس العذر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أنه فعل ذلك، ولم يدنه كما ذكر المدلسون في أمر لم يفعله.

والقوم الخونة الذين ألفوا هذا الكتاب استغلوا إعراض الناس عن القراءة والبحث، وأرادوا أن يدرجوا اسم كاتب كبير لاسمه رنين، حتى يخضع الناس ويستسلموا ويوقنوا أن عمر فعلا هو من أحرق مكتبة الإسكندرية، فما دام العقاد قد قال، فقد حدث.

ومثل هذا الكتاب يرمى في سلة الكذب، حينما أهمل المصدر والمرجع في قضية خطيرة بهذا القدر، وتحت اسم رنان كاسم العقاد.

وهي التجربة التي خاضها الكاتب الإنجليزي (رتشارد جارنت) قصة تحت عنوان (جزاء الاجتهاد) فطرح الكذبة بصورة أدبية حتى لا يوجه إليه لوم من هنا أو هناك فألف رواية أدبية.

وهنا نقول: لا يعني أن الرواية الأدبية إذا تخلصت من ثقل المراجع أن يساغ لها الكذب وتستبيح الافتراء، أبدا أبدا، فإن التهمة التي تلحق

الكتب التاريخية التي تجردت من المراجع أو زيفتها، تلحق كذلك الرواية التاريخية، التي تجنت على التاريخ وكذبت حقائقه.

لا تخوضوا في غير ميدانكم

الغرور دومًا ما يضر بأصحابه ويوردهم موارد الخطأ.

بل يدفع هذا الغرور كثيرا من الناس أن ينزلوا مواطن غير موانهم، ويخوضون ميادين لا تخصهم، ولا يعرفون عنها أي شيء.

انظر مثلا للفيس بوك الذي اقتحم حياتنا، وقد جعل أغلب الناس فلاسفة ومنظرين وحكماء وسياسيين وعلماء ومصلحين، وغير ذلك من ألوان الحكمة في الحياة.

وظهر علينا كل زاعق وناعق، يهرف ويهتف بما لا يعرف، ويخوض خوض الأبطال في كل المجالات والعلوم والآراء، وهو يجهل أنه يبرز جهله ويُضحك الناس عليه.

وأغراه في هذا الوادي السحيق، تصفيق وتهليل بعض الجهلاء مثله، فظن نفسه أنه بارع وموهوب ولوزعي سديد الرأي والفكر، وقديما قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري: "وإذا تكلَّم المرءُ في غير فنِّه؛ أتى بهذه العجائب"

وقال الجُرجانيّ رحمه الله في دلائل الاعجاز: "إذا تعاطى الشيءَ غيرُ أهله، وتولَّى الأمرَ غيرُ البصير به؛ أعضل الداء واشتدَّ البلاء"

وقال السّمعاني رحمه الله في القواطع: " فإن مَن خاض فيما ليس من شأنه؛ فأقلّ ما يُصيبه افتضاحُه عند أهله"

قد يزهو بعض الناس بعقله، ويُعجب برأيه، ويتفوق في فن من الفنون، فيغريه تفوقه، ويصور له أنه يمكن بهذا العقل الألمعي الذكي أن يفتي في كل شيء وكل شأن، وقد جمعتني المجالس بكثير من اللون من أساتذة الجامعة، ممن تخدعهم عقولهم فيتصورون هذا التصور، حتى بدى منهم ما يدهش الألباب، ويحير النظر من عجائب الجهل والخطأ.

الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوي، كان من أكبر المثقفين الذين عرفتهم مصر، وأقوى العقول فيها، فقد أدهش الأمة بقوة التفكير والبراعة في ميدان الفلسفة الوجودية، التي هي ميدانه الفسيح، والسيد المشار إليه فيها، فكان مع هذا ممن وقع في شرك هذا الخطأ، حينما قام بتحقيقي كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي، فوقعت منه أخطاء فادحة، وأغلاط متعددة، نبهه إليها المحقق الأستاذ السيد صقر، وانتقده ببضع مقالات في مجلة الثقافة، أبرزت مواطن هذه الأغلاط.

وقد كان الأولى بالدكتور بدوي أن يظل علما في ميدانه، ويترك تحقيق التراث لفحوله المتبحرين فيه والعارفين بفنه، كان الأولى به وهو الغيور على نفسه أن يجنبها شماتة الشامتين، وفرحة الحاقدين.

نفس الشيء وقع فيه كثير من المستشرقين في تعريفهم للثقافة الإسلامية، التي هم بعيدون عن بيئتها وأصولها ومعارفها تمام البعد، لقد اعتمدوا في شرح هذه الثقافة على عقولهم، واستندوا إلى مناهجهم البحثية التغريبية في التقييم والشرح والتقديم، فكثر الخطأ وتعددت الأغلاط، حتى أتوا بالعجائب.

يمكن لمجال التحقيق أن يكون سهلا في الجمع والترتيب والفهرسة، أما أن تدخل إلى عمق النصوص، وتستبيح دروبها وأنت جاهل بمعالمها، وكيفية التعامل معها، فسوف يكون ضلالا كبيرا، وهو ما رأيناه وعلمناه في كثير مما خاضوه في السيرة النبوية، وتفسير آيات القرآن الكريم، ومنهم من اعترف بقصوره وخطئه، مثل: آربري الذي قال للدكتور مصطفى السباعي: "إنَّنا - نحن المستشرقين - نقعُ في أخطاء كثيرة في بُحُوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألاَّ نخوضَ في هذا الميدان؛ لأنَّكم - أنتم المسلمين - العرب أقدرُ مِنَّا على الخوض في هذه الأبحاث"

انظر معي عنا لبعض تأويلاتهم الغريبة المريبة لبعض آيات القرآن الكريم التي تثير الدهشة والضحك:

* قال تعالى: " صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ " [البقرة: ١٣٨]

ترجمها أحد المستشرقين فكان معنى ترجمته: " صباغة (تلوين) من الله، لكن من ذا الذي يمكنه أن يصبغ (يلوِّن) أفضل من الله، عندما نعبده؟ ".

والصحيح أن معنى " صِبغة " في الآية الكريمة: الدين، وسمي بذلك؛ لظهور أثر الدين على صاحبه كأثر الصباغ على الثوب، ولأنه يلزمه ولا يفارقه كالصبغ في الثوب.

* قال تعالى: " وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ " [الإسراء: ١٣]

زعم أحد المستشرقين أن القرآن يقول إن الكافر يأتي وفي رقبته حمامة يوم القيامة.

والصواب أن الآية الكريمة تتحدث عن ما يراه الناس يوم القيامة في صحائف أعمالهم من نتيجة العمل الدنيوي، إن عمل خيراً فسيرى خيراً، وإن عمل شراً فسيرى شراً.

* قال تعالى: " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ " [الأنبياء: ٩٨]

تدخل أحد المستشرقين لتصحيح كلمة " حَصَبُ " ـ بزعمه ـ فقال: " إنه ينبغي أن تكون الكلمة هنا "حطب"، فهي الكلمة التي تعني الخشب للنار.. وإنه لسهل جداً التصور كيف حصل هذا الخطأ عند كتابة " الحطب " نسي الناسخ وضْع الخط العمودي للطاء فأصبحت الطاء صاداً.

أما الصواب في ترجمة معنى الآية الكريمة فإن الآية تتحدث عن عملية التحصيب (الرمي والإلقاء) ولا تتحدث عن الوقود. فـ " الحصب: اسم بمعنى المحصوب به، أي المرمي به. ومنه سميت الحصباء؛ لأنها حجارة يرمى بها، أي يُرمَون في جهنم.

* قال تعالى: " وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِهِم ". [الزمر: ٧٥]

زعم أحد المستشرقين أن الآية تخبرنا بأن الملائكة " حفاة الأقدام "

والصواب أن معنى " حَافِّيْنَ " أي: " مُحيطين مُحدِقين به، يقال : حفّ القوم بفلان إذا أطافوا به "

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة الغريبة التي لا يتسع المقام لنقلها، لكنها على الأقل يمكن أن تكون إشارة لكل الباحثين الناهلين من معين المستشرقين، حتى يتجنبوا كثيرا من هذه الهلوثات المغلوطة، في مناحي الثقافة الإسلامية، وأن يكونوا على حذر في النقل عنهم والأخذ من تأويلاتهم كما فعل كثير من باحثينا ومفكرينا، فقدموا لنا خللا كبيرا في الفهم والتفسير.

كلب الست

لعل حادثة كلب الست من أبرز وأهم الحوادث التي كانت محل نقد وإساءة للسيدة أم كلثوم، ولا شك أن ما أثير حولها أضر بعض الشيء بشعبيتها الطاغية ، لأنها خرجت بها من مصاف الإبداع إلى ما يعانيه الشعب وقتها من الوساطة والمحسوبية التي تجعل صاحبها فوق القانون والمساءلة أمام شخص غلبان بسيط من عموم الشعب، وإذا كانت أم كلثوم قد هزت قلوب المصريين وأصابتهم بالنشوة والطرب، فإن صوت المظلوم الضعيف المسكين، هو المعادلة التي يمكن أن تضرب كل هذا المجد الذي صنعته أم كلثوم ونالت به تقدير الجماهير.

القصة معروفة مشهورة وملخصها كما ذكر: عندما قرر طلبة معهد التربية بالهرم إقامة يوم رياضي مع طلبة كلية الفنون الجميلة بالزمالك، أي في المنطقة التي تقع خلف فيلا أم كلثوم، وعند مشي بعض الطلاب من أمام الفيلا خرج كلب ام كلثوم وقام بعضه، وقرر الطالب الذهاب لنقطة الشرطة وتحرير محضر رسمي، وبالفعل تم تحويل الطالب للقومسيون الطبي الذي أثبت إصابته بعضه كلب مدلل اسمه ''فوكس'' تملكه كوكب الشرق ''ام كلثوم'' فيذهب لقسم الشرطة ليشتكي. وكان مما قاله له وكيل النيابة بعد أن علم أن الفاعل كلب ''ام كلثوم'' :

دا كلب الست يا ابني''''''' و انت تطلع ابن مين.

والبيت الشعري على لسان الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم. الذي استفزه موقف وكيل النيابة الذي يتعين عليه طي الملف، وتنفيذ التعليمات.
لم يسجل نجم حنقه وغضبه على وكيل النيابة وحده، وإنما راح ينتقد موقف الضحية الطالب الساذج اسماعيل الذي وصفه بأنه من أغلب خلق الله، وتغير موقفه حينما راح يفتخر أمام الصحافة بأن كلب الست أم كلثوم عضه، وكأنه قد نال عضة من إسرائيلي أو عدو لمصر، فكتب وقال وأنشد قصيدته التي كانت من أجمل ما غناه رفيق دربه المطرب الثائر الشيخ إمام.
فماذا قال نجم تعليقا على الحادثة؟
لقد أنشد يقول:
ست فاقت على الرجال/ في المقام و الاحترام/ صيت و شهرة/ وتل مال/ يعني في غاية التمام/ قُصره يعني هي كلمة/ ليها كلمة ف الحكومة/ بس ربك لاجل حكمة/ قام حرمها من الأمومة/ والأمومة طبع ثابت/ جوه حوا من زمان/ تعمل ايه الست؟ جابت/ فوكس رومي وله ودان/ فوكس دا عقبى لأملتك/ عنده دستة خدامين/ يعني مش موجود في عيلتك. اسماعين بدال ما يجري/ قال يا رجلي رجلي مالها/ بص شاف الدم سايح/ من عاليها و من واطيها/
راحوا قسم الشرطة طبعاً/ و النيابة كفيلة بيهم/ و اترموا ف الحجز جمعاً/ لما ييجي الدور عليهم/ حبة والشاويش أمين/ قال: "سعيد النقشبندي"/ قام غريم عم إسماعيل/ قال له: "محسوبك يا افندي"/

قام سي سمعة يروح معاه/ الشاويش قال: "غور بدمك/ راح تعوصني" .. وفوق قفاه كف طرقع : "داهية في أمك"/ تفتكر يفضل سي سمعة/ قد إيه في القسم نايم/ استضافه الحجز جمعة/ يا بلاش .. آدي العزايم/ شاف بلاوي ما تتحكيش/ من الجماعة المسجونين/ قال يا عالم يا شاويش/ يا نيابة .. يا مسئولين/ خلصوه بعد المناهدة/ جثه من جحر الديابه/ هي حسبة ساعة واحدة/ كان في مكتب النيابة/ قال له ـ مالك يا اسماعين/ قال له ـ زي البمب مالي/ قال له ـ عضك فوكس فين/ قال له ـ سيبني أروح لحالي/ انت شوف سي فوكس يمكن/ خد تسمم غصب عني/ الوكيل قال برضه ممكن/ و الشاويش قعد يغني/ هييص يا كلب الست هيص/ لك مقامك في البوليس/ بكرة تتولف وزارة/ للكلاب/ ياخدوك رئيس/ انت تسوى ف النيابة/ تسعمية م الغلابة.

وحينما سمعت أم كلثوم بالقصيدة أغضبها، وتوعدت نجم وقالت بالحرف الواحد: حبهدلو حشردو، فقيل لها: إنه مشرد أصلا.

المضحك في الأمر أنني وأنا أقرأ كتاب الأستاذ رجاء النقاش عن أم كلثوم، وهو يتذكر ذهابه لزيارتها لأول مرة في حياته سنة ٦٦ ، وأخذ يصف بيتها وهيئته قال فيما قال: " لا أدري من أين جاءني هذا الإحساس ، بأنني داخل بيت نوراني، فيه الهدوء وفيه الإشراق والناقة الداخلية العميقة" ثم قال: " ولا يوجد في البيت قطط ، ولا توجد في حديقته الواسعة كلاب، كل شيء هادئ، حتى البواب الذي يجلس أمام

الفيللا حتى السفرجي الذي فتح لي الباب، الهدوء الأنيق يملأ المكان بالعطر الجميل"

انتهى كلام النقاش، وطبعا واضح بقوة من الحوار أن صاحبنا النقاش، أراد أن يرد عن أم كلثوم تهمة الكلب وموقفه الذي شاع وعضته للمواطن الغلبان المسكين، فأيهما نصدق إذن، كلام النقاش، أم شعر أحمد فؤاد نجم، أم أن أم كلثوم سارعت لطرد كلبها حتى تنفي التهمة ؟

لكن كلام النقاش في نظري كان محل سخرية، فوصف الهدوء لأي مكان لا يشترط لإظهاره أن نزج بالكلب والقطط حتى نثبته ونجسده، كما أن نفيه لوجود القطط لا شأن له بالهدوء، لأن القطط رمز الوداعة والرقة، ولا تشكل أبدا إزعاجا للبيوت، لكن صاحبنا يريد أن يقول للناس : أم كلثوم أصلا ترفض فكرة وجود الحيوان في حتى ينفي التهمة عنها.

لكن لا شك أن شعر نجم كان أقوى في ذائقة الجماهير من كلام النقاش، وبقي في ذكارة المصريين أكثر مما تشيعه سطور النقاش.

وهكذا شاء القدر للناقد الكبير أن يتعرض للنقد من سطوري ومقارنتي ووضعه في موضع المجامل لأم كلثوم.

عميد وفنان

الإنسان النبيل هو ذلك الذي لا ينسى أبدًا من قدم إليه معروفًا، ولو بكلمة أو دمعة أو مواساة في لحظة ضعف وانكسار وضياع.

الشهامة الحقيقية أن لا تنسى أبدًا من وقف بجوارك في وقت ضيق، حتى ولو لم يقدم لك شيئا سوى أن يربت على كتفك حزينا من أجلك.

اشكر له صنيعه وحي قلبه الذي كان معك وآزرك، وتمنى لك الخلاص والنجاة.

أقول هذا الكلام وأنا استمع إلى صديق لي يروي لي نبأ عميد من عمداء جامعة الأزهر الشريف، كان قد وجد من يساعده من الدكاترة الكبار، ومد له يد العون، وأسهم رقيه وتصدره، وصار صاحب جميل عليه، ولما وصل صاحبنا إلى درجة العمادة وصارت له السلطة والسيادة، تعنت في الإشراف على زوجة أستاذه الذي ساعده وذلل له الطريق حتى بلغ المعالي، لم يمنح الزوجة ما تريد ووقف في وجهها، وأعاق طريقها، حتى ماتت ولم تحصل على الدكتوراه، وكأنها تجني جريمة زوجها الذي لم يكن له ذنب إلا أنه كان نبيلا شهما معه، فقابل كرمه بجحود عنيف وتنكر شديد.!

هل تتخيل أن صاحب هذا الصنيع كان ممن يتقنون فنون التملق والتزلف للكبار، ويفترض له أن يكون عالما من العلماء، إلا أن أخلاقه التي جبل عليها أبت إلا أن تكشف عن نفسها، وتجرح أولئك الذين أحسنوا إليه يومًا ما.

كنت أستمع إلى هذا الحال الرذيل وأنا أقرأ هذا الخبر الذي نشرته «مجلة» الموعد في عددها الصادر يوم ١٠ مارس ١٩٧٠، حيث طلب الفنان الكبير يوسف وهبي من أحد العاملين لديه أن ينظف مكتبه ويتخلص من الأوراق والصور التي لا فائدة منها، نفذ العامل التعليمات وبدأ يبحث في أرجاء الغرفة، حتى وصل إلى الخزنة الخاصة بيوسف وهبي، فتحها وبدأ بإخراج محتوياتها، ومن بين ما وجد، كانت هناك صورة موضوعة داخل برواز صغير، ظن العامل أنّها صورة قديمة لا أهمية لها، فألقاها على الأرض عن غير قصد، وهنا كانت المفاجأة.

صرخ يوسف وهبي بصوت مرتفع ملأه الانفعال، حاسب على الصورة دي!، وانتفض من مكانه مسرعًا ليلتقط الصورة بنفسه، فيما وقف العامل مذهولًا يعتذر: أنا آسف يا أستاذ.. دول قرايب سعادتك؟ جاء رد وهبي هادئًا لكنه عميق الدلالة: لأ.. دول المحضرين اللي حجزوا على هدومي من ٤٠ سنة.

روى يوسف وهبي للعامل القصة الكاملة، وقال إنَّ الواقعة حدثت في مسرح رمسيس، حين دخل عليه ٣ من المحضرين في أحد الأيام لتنفيذ أمر بالحجز على ممتلكاته، بسبب تراكم الديون على فرقته المسرحية بعد سلسلة من الخسائر، ورغم قسوة الموقف، لاحظ وهبي شيئًا إنسانيًا نادرًا، المحضرون الثلاثة كانوا متأثرين للغاية، يحاولون إخفاء دموعهم وهم ينجزون مهامهم، ويعتذرون له بشدة على ما اضطروا لفعله، بحسب قوله، وفي تلك اللحظة حضر مصور لتوثيق صور للفرقة،

فطلب منه وهبي التقاط صورة للمحضرين الثلاثة، واحتفظ بها في برواز صغير، كذكرى لموقف مؤلم، لكنه يحمل معاني إنسانية نادرة.
مرت السنوات، وتحقق النجاح الفني الذي طمح إليه وهبي، وحين تمّ تكريمه في لندن، التُقطت له صورة خلال الحفل، فوضعها في برواز مماثل، ثم وضع الصورتين جنبًا إلى جنب في خزنته، لم يكن يفعل ذلك بدافع التفاخر، بل كما أوضح بنفسه: احتفظت بالصورتين علشان أفتكر دايمًا إن مفيش يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.
يوسف وهبي كان شخصا شهما أصيلا، اما العالم الجليل فلم يكن على المستوى اللائق بمكانته.
تخيل أن بعضهم يستاء ونحن نتحدث عن أزهري بهذه الصورة ويتخيل اننا نهين الأزهر، وكأن كل أزهري لبس العمامة وتقلد العمادة هو في ظنهم نبي معصوم أو ملك مطهر، لا يقربه النقد، وعصي على التنقيص.! والأزهر عامر بالشرفاء، وليس معنى أننا نتقد أحدا منه اننا جعلنا ذلك القاعدة التي نبني عليها.. دعونا نشير إلى الشر مهما كان خطأه أو موقعه، وهل لو ذممت مصريا شريرا يعني ذلك ان كل مصر على سوء؟!
إن كل كريم نبيل هو الشريف وإن كان أضعف الناس وأقلهم، وإن كل خسيس وضيع هو أخبث الناس وإن كان أكبرهم.

على بعد متر

حينما هممت مؤخرا بكتابة مؤلفي (تعلمت من هؤلاء) تعبت كثيرا في رصد الملامح الأخلاقية والإنسانية في حياة من جمعتهم من المفكرين، وكان الجهد الأكبر يقوم على حصيلتي القرائية التي توافرت والحمد لله منذ زمن كبير، مما ساعدني على إتمام الكتاب في زمن قصير.

إلا أن هناك شخص واحد أضناني في البحث عن سيرته الذاتية، والوقوف على حياته بالصورة التي أتمناها وأرجوها، وهو أمير الشعراء أحمد شوقي.

حرت كثيرا وبحثت كثيرا وتعبت كثيرا، فلم أجد ما يدلني على ما أريد، حتى وقع في يدي كتاب أو مذكرات ولده حسين، والتي كان يحكي فيها عن والده أمير الشعراء وسماها (أبي شوقي)، وتوقعت أن أجد في الكتاب بغيتي، لكن للأسف لم يركز ولده الاهتمام على كثير من جوانبه الإنسانية اللهم إلا شذرات معدودة من تصرفاته، كان أكثر الكتاب يتكلم عن علاقاته ومناسباته التي قال فيها الشعر وسفره وحله وترحاله وسهره وطعامه، وماذا كان يقول ويتكلم؟

لم يكن هناك في أعماق هذا الكتاب شيئ مما أريده، ليخدم مادة كتابي وغايته.

واضطررت للقراءة العميقة في شعر شوقي ومناسباته وأسباب قصائده، علني أستلهم أو أقف على بعض صفاته الإنسانية منها، كنت أفعل ذلك وأنا غير مقتنع، فما أسهل أن يقول الإنسان كلاما وهو غير

مقتنع به، وليس الكلام هو الدليل على نفسية الإنسان ومستواه القيمي والأخلاقي.

وكان حديثي عن شوقي كما ظهر وكأنه دراسة أدبية، أو إطلالة على شعره الإنساني، أو ما يمكن أن يسمى إنسانيات شوقي.

ولم أقنع بكتاب ولده حسين، وسارعت أقرأ كتاب شوقي للدكتور شوقي ضيف، علني أجد أي إشارة للشاعر الإنسان، أو الإنسان الشاعر.

لكن دراسة الدكتور ضيف، كانت كلها نقدا أدبيا، وكان بها بعض الإشارات التي تضر شخصية شوقي، ولا تنبئ بأي شيء من ملمحه الإنساني.

كان حزني كثيفا وتساءلت: كيف لمثل هذا الشاعر الضخم في تاريخ أمتنا، لا يوجد كتاب يحكي شيئا من إنسانيته، ولا نعلم أي شيء متعمق في حيته وصفاته ومواقفه، على غرار غيره من الأدباء والكتاب.

إن ذلك تقصير كبير ممن حوله وممن عاصروه.

ومع الوقت وفي بحثي في مكتبتي، وقعت يدي على كتاب كنت قد اشتريته منذعام ٢٠١٢م من مكتبة الأسرة، تحت عنوان (اثنا عشر عاما في صحبة أمير الشعراء) لخادمه وملازمة أحمد عبد الوهاب أبو العز.

وعلى قدر فرحي، كنت في قمة حيرتي واستيائي، فكيف يكون هذا الكتاب الذي كنت في أمس الحاجة إليه، وهو على بعد متر مني وأنا لا أعرف؟!

وجدت في هذا الكتاب ما أريد، ولعله الكتاب الوحيد الذي يقدم شخصية شوقي الإنسان على أوفى ما يكون، وما أجدر هذا الكتاب أن يكون تحت عنوان: شوقي الإنسان.

وعلى صغر حجمه، إلا أنه وفى مسيرة الشاعر العملاق في إنسانيته وأخلاقه وطباعه، حتى صار وكأنه ماثلا أمامي أشاهده وأتخيله في كل تصرفاته.

وخرج شوقي الإنسان الذي كنت أرجوه.

صلاح فضل سارق التراث

كنت منذ أيام في حديث مع علم كبير من أعلام الأزهر الشريف، ولما جاءت سيرة الدكتور صلاح فضل، ترحم عليه، و كان مما ذكره لي وقد عرفه عن قرب: إنه كان يكره التراث الإسلامي بشدة.

والحق أن الكلمة مرت علي دون أن ألق لها بالا، حتى قرأت هذا الخبر الذي أعاد إلى ذهني هذه المقولة وتذكرتها، وربطت بينها وبين ما جاء في تفاصيل هذا الخبر الموثوق الذي نشر على الموقع الرسمي ل دار الهلال عام ٢٠١٧م، ويشير إلى سرقة موسوعة رسالة الإمام الشافعي المعروفة بالأم، ولو لم يكن هذا الخبر منشورًا في الموقع الرسمي للهلال، لما صدقته أو التفت إليه، لكن الأمر يحتاج منا إلى بعض النظر.

يقول الخبر: "أزمة دار الكتب وطنية وليست مالية

قال «بكري سلطان» باحث ورئيس قطاع الترميم اليدوي بدار الكتب والوثائق، إن الأزمة التي يعانى منها دار الكتب والوثائق، أزمة وطنية وليست أزمة مالية فقط، وأن المشكلة الكبرى داخل دار الكتب والمسكوت عنها هي سرقت رسالة «الإمام الشافعي»، والتي لا يوجد منها أية نسخة أخرى في العالم، وإن كان يوجد منها صور فهي على خلاف مع الأصل.

كما أوضح أن الرسالة تعد أكبر موسوعة فقهية إسلامية في تاريخ الإسلام، وأنها رسالة غير الرسالة الأم، فقد كتبها الربيع ابن سليمان وأنهاها ونظر إليها أكثر من ثلاثين مرة بخط يده، فهي تحتوي على الـ٥ سنوات التي قضاها الإمام في مصر بعد انتقاله من العراق.

متى سُرقت رسالة الإمام؟

أكد "سلطان"، أنه بعد سرقتها في إحدى الحفلات السورية المصرية، قاموا بعمل جرد للاطمئنان على الوثائق فوجدوا أكثر من ٣٠٠ وثيقة مسروقةً ولو قيل وقتها لانقلبت الدنيا عليهم وكان رئيس دار الكتب وقتها الدكتور (صلاح فضل) فقاموا بعمل تقريرين أحدهما ختامي سري، والآخر أذيع للجميع، جاء فيه أنه لم يُسرق سوى رسالة الإمام الشافعي."

ان السرقة إذن لم تكن في رسالة الشافعي وحده، وإنما تعدت لتشمل ٣٠٠ وثيقة تراثية.!!

وفي عهد من؟

في عهد صلاح فضل
ما معنى هذا؟
ما معنى أن يهدر التراث بهذا الشكل في رجل ذكر عنه أنه عدو للتراث؟
ألا ترى معي أن هناك ربط كبير بين الأمرين؟
أنا لن أتهم أحدا بشيء، ولكني أترك لك أيها القارئ أن تستنتج وحدك، أتركك لضميرك وحده أن يحكم ويعدل، أما أصحاب الهوى والعقول التي لا تعرف معنى الانتماء لهويتها، فإن صلاح فضل يبقى في أعينهم إلها منزها عن مثل هذه الخيانة التراثية، أو خيانة الهوية، بل بكل وضوح الخيانة الوطنية.
أنت تحب الراحل صلاح فضل، وقد تكون من تلامذته والمتعلمين على يديه، فلك كل الحق أن تمدحه وتثني عليه.. لكن ليس من حقك أبدا أن تنكر ما حدث علي يديه وفي عهده من جرائم، أو أن يدفعك حبه لبرئته من إهانته لتراث أمتنا أو تفريطه فيه وسرقته.
أما العاطفيون الذين يقولون لك: لا نحب الخوض في رجل مات وقضى نحبه، فهذه مثالية فارغة، يمكن أن يتقولوا بها عن جيرانهم في البيت، أو أصدقائهم في الشارع، أو زملائهم في العمل، أما أن تقال عن رجل مفكر قدر له مكانه أن يعبث بثوابت ومعتقدات وتراث الأمة، فذلك منطق فاسد ضعيف.
إن هؤلاء يريدون أن يعموا أعينهم بالقوة عما لا يحبون سماعه مما تكشف لهم من حقائق تصدمهم في رجل أحبوه، أما الأكثر بلاهة وتجنيا

فهم هؤلاء الذين يقولون لك: لماذا لم تتحدثوا بهذا في عهد الرجل أم أن الفارس لما ترجل خرج صياحكم؟

والحق أيها الغريب في قولك وفهمك، إننا لم نتحدث عن الراحل، ولم يكن في نيتنا أن نكتب حرفا واحدا عنه، لكن من عادة العلمانيين إذا رحل أحدهم عن الدنيا، أخذوا يهللون له ويعظمون تاريخه ويمجدون آثاره، وكأنه كان عبقري الأنام ودرة الزمان، وهم في هذا يهدفون إلى صرف الناس إلى آثاره وأفكاره، بعدما انصرف عنهم بلسانه وجسمانه، فهم يريدون بقاءه بما خلّف ليسهم في دعم العلمانية والفكر المعادي للقيم الدينية التي هي هوية الوطن العزيز مصر ودين شعبها وجيشها الميمون.

هل فهمتم الآن لماذا نهاجم صلاح فضل وننتقد صلاح فضل؟

كما أنني أقرر: أي إنسان مهما بلغ علمه ومقامه ومستواه، يكون مستباح السيرة والنقد والتوقيم، إذا ما تعرض لهوية الأمة وتراثها ومجدها.. ولن يمنعنا الموت أبدا من أن نبصر الناس بما كانت عليه حقيقة من يهللون له اليوم.

صالونات تبيع الوهم؟

لا تظن أن الصالونات الادبية التي تراها اليوم هي ذاتها التي تسمع أو تقرأ عنها في كتب الأدب وتراجم الأعلام الفكرية والثقافية.. لقد

كانت الصالونات القديمة موطئا لأعلام الفكر والأدب، كانت تستضيف الكبار من ذوي المواهب والإبداع والتأثير الفكري في الساحة الثقافية، كان الحضور يستفيدون ويتعلمون، ويخرجون في نهاية اللقاء وهم على يقين كبير بالإفادة والتعلم والزيادة المشهودة في حصيلة معارفهم.. أما اليوم فإن الصالون يجتمع ليناقش رواية أديب مبتدئ أو مجموعة قصصية لكاتبة هاوية في أولى خطوات الطريق.. ما الذي نستفيده ونتعلمه، ما الذي يمكن أن يعطينا شاب او شابة في مستهل مشوارهم الكتابي؟

أعتقد أنه لا شيء.

يقولون لك: نشجعهم ونحفزهم.. وأنا أقول: يمكن ذلك تحت مسميات ورشة إبداعية تابعة للصالون يحضرها من يشاء ممن يريد التعلم والتعرف على البدايات، أما أن يكون صالونا فتلك كلمة كبيرة عليه.

ألاحظ كذلك أكبر خطيئة شائعة في تلك التجمعات التي تطلق على نفسها مسمى الصالون.. ذلك أنها تقتصر على مناقشة الرواية والقصة، وإذا سألت نفسك أين الفكر وأين العلم وأين الثقافة؟ لا تجد جوابا شافيا.

الصالونات القديمة كانت قبل رصدها للإبداع، تشكل فكر الأمة وترمق مستجداتها الثقافية، وتبرز الطريق الأمثل الذي يجب أن يكون عليه الحال المعرفي..

كانت الصالونات تدعو وتستقطب الكبار الذين يثرون الحضور بعبق أفكارهم، والكثير من علمهم.

كان الصالون لا يقتصر على الأدب فقط، وإنما يعرض لكل أشكال المعرفة، وإذا تأملنا الصورة الحالية أمام الماضي الزاهي، لوجدنا بونا شاسعا يجسد نوعا من الهراء.!

المشرفون على هذه الصالونات الغريبة التي استعارت لقب (صالون) وهي ليست منه في شيء، أو ليس هو منها في شيء، أغلبهم تستهويه الشهرة بين الشباب الذين انتشرت فيهم هواية القصص وكتابة الحواديت وتسميتها بالرواية، وفرضوا على الواقع الثقافي لونا لا يمكن أن يجسد الأدب الحقيقي، لافتقارهم إلى أدواته الكبيرة عليهم.

كل من أراد أن يشعر بذاته أو أن يشغل وقته، يؤسس صالونا أدبيا، ليكون محط أنظار الشباب ومحور اهتمامهم.

الشباب الصاعد يحتاج مزيدا من النضج ومزيدا من القراءة حتى يكتب شيئا جيدا يمكن أن يوصف فعلا بأنه عمل ممتاز.. كتابة القصة والرواية موهبة لا تنزل بالبراشوت على صاحبها، وإنما هي موهبة عريقة تثقلها الثقافة والقراءة المكافحة.

كان آخر عهدي بهذه الصالونات العريقة التي افتقدتها مصر، صالون العلامة القدير الدكتور سعيد اسماعيل علي، كنت مواظبا على حضوره في القاهرة، وكنت وقتها صغير السن، وعبر هذا الصالون الشامخ رأيت أعلام الثقافة والفكر، واستمعت إلى صناديد العلم، وإذا لم تكن

لي من إفادة غير أني رأيت قمة شامخة فكفاني، لكننا اليوم نحضر هراء ونشاهد هرفا.

وكنت منذ عهد قريب أحضر بعض الندوات لهذه التجمعات التي استعارت لقب الصالونات، وتقويمي لها أنها لا يمكن أن تمثل الثقافة الحقيقية في شيء طالما جافت الفكر، وخاصمت المعارف.. وأصرت على تقديم لون لا يخدم المعرفة في شيء.

نحن أمام بحر كبير أو شلال من الحكاوي والقصص، ويقال: إنه كل ساعة في مصر تولد رواية، حتى أن نصف الشعب أوشك أن يكون كله روائيا، وطبعا نرى المستفيد الأول دور النشر التي تستغل أحلام الشباب والشابات في نشر قصته، وتتبعها الصالونات التي توهم الشاب والشابة أن روايتهما التي قبلت المناقشة مبدعة وخلابة ولا مثيل لها.

خداع في خداع، ووهم في وهم.

بعض الصالونات تتوق إلى مناقشة كل الألوان الثقافية، ولديها استعداد ورغبة أن تقدم صورة حقيقية للبعث الثقافي المنشود، لكن للأسف، لا تجد الموجة الشبابية التي تساندها، وتؤيد رغبتها الطموحة، واحذر أن تتخيل أو تظن أن هذا الحال الشبابي الحالي، يدل على الثقافة الحقيقية، أو أن أصحابه يمكن أن نطلق عليهم مثقفون، الثقافة أعلى بكثير من مجرد كتابة قصة، الثقافة علم وفهم وحفظ وقراءة وفكر وقبل هذا وعي.

صالون أدبي يتآمر على اللغة العربية

ومع اليوم العالمي للغة العربية، كان لابد لنا هنا من وقفة، نصف بها هذه المسخرة الهازلة، التي تمثلت في جمهرة منكرة ممن ينتسبون لزمرة الأدب زيفا وزورا.

يحدث اليوم في بعض الصالونات الأدبية، المتحزبة بوشاح العلمانية، وتستضيف من أنصارها العلمانيين، الذين يصفون أنفسهم بالتنويريين، لتحشرهم في أتون الأدب حشرا وهو منهم براء.

يجلس القوم على منصاتهم ينقدون الروايات والقصص الأدبية، وكان منهجهم في النقد بدعة فاجرة، لم نسمع بها من سالف الدهر والأيام، ولم يطلع علينا بأمثالها في غابر الزمان إلا المستعمرون والمحتلون، الذين كانت أول أهدافهم أن يقضوا على هويتنا بالقضاء على لغتنا، لأن وجود اللغة يعني وجود الإسلام، وأن هزيمة الإسلام تبقى مبتورة، إذا بقيت لغته حية قوية.

إنهم يريدون إماتة اللغة العربية، وقتل معالم الجمال فيها، حتى لا تجتذب العقول والعواطف، فيموت الحماس لها، وإذا مات الحماس لها، مات الحماس والفهم للقرآن والإسلام.

حدثتني كاتبة أديبة، أن صالونًا أدبيًا في القاهرة، ممن يغشاه عليه العلمانيون، قد دعاها يومًا لمناقشة روايتها، والحق أن السيدة الأديبة قدمت إلي روايتها لأبدي حكمي فيها، ونظرتي عليها، وكأنها تشتكي لي

غدر الذئاب، فرأيت أديبة مكينة من لغتها، فخمة اللفظ، رائقة البيان، عذبة التعبير، تمتلك قدرات هائلة من فنون البلاغة.

لكن المفاجأة المدهشة أن النقاد العلمانيين، أخذوا ينتقدون لغتها القوية، وأسلوبها الفخم، وجعلوه من معايب الرواية، وأرادوا أن يوهموها أن تألق البيان طريقة بالية، وأن اعتماد التخفيف، فيه الجودة المنشودة التي لم تحققها.!!

كانت السيدة تروي لي هذا الهزل، والدهشة تغمرني لحد الذهول، فكيف يعيب ناقد أدبي رواية تشبثت بالرقي الأدبي؟ وكيف له أن يستنكر نصا سرديا قبس عجينته من وحي العرب وبلاغتهم الضافية؟!

لقد قال لها أحدهم بكل غل ورعونة: إنك تستعرضين.!

وأنا هنا لا أعرف أي استعراض يمقته، وكيف يكون عيبا لو حاول الكاتب المكين أن يستعرض موهبته وقدرته على الابداع البياني، وهل يكون الاستعراض في هذه شيئا مستنكرا منقودا مشينا؟

ما هذا السفه.؟

بل ماذا يقول هذا وأمثاله في روايات طه حسين وإحسان وثروت أباظة ويوسف إدريس والحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم ممن جعلوا روعة البيان طريقة سردهم.. هل هم في أعرافهم مستعرضون؟ فأي نقد هذا؟ .. اللهم إلا نقد المدارس الاستعمارية.

إن هؤلاء يعمدون إلى إفساد اللغة، وضرب الأدب في الصميم، وإخراج أجيال تعتمد على الخيال المتجرد من سماته الأدبية البيانية، هم

يريدون أفكارا فقط، ويالجمالها في أذواقهم، لو سُردت باللغة العامية، ساعتها يكون كاتبها أديب الأدباء وعمدة القصاص والمبدعين.

وعندي أن هذا الصالون الذي يستوعب هذه الزمرة الجاهلة الحاقدة، هو صالون لا يقتل الأدب أو يجرد اللغة من جمالها ليفسد الذوق والحس، وإنما هو بؤرة تتآمر على هوية الأمة ولغة العرب والإسلام.

وما أحرى بنا هنا أن نرد عليهم بما رد به خليل مطران على من لاموا الشاعر الكبير محمد عبد المطلب على جزالته البيانية فقال في الرد عليهم:

ربِّ مَمْرُورٍ من الجهل نعى** صحة القول عليه فنعب
خال إغراباً وما الإغراب في**ذلك اللفظ الأصيل المنتخب
إنما الإغراب فيه أنـه** عربي بين أهليه اغترب
آخذ المعدن من منجمه ** هل عليه حرج يا للعجب
إن للفصحى نشورا هيأت ** أمم العرب له كل سبب
ما يريدون من الشعر إذا ** لم يكن صور النشور المرتقب
ذلك البعث هو الفتح الذي** ليس يعدوه لذي لبّ أرب

صافيناز والحشرات الزاحفة

لا شك أن كثيرًا ممن هاجموا صافيناز كاظم في انتقادها للراحل بهاء طاهر، لا يمتون للثقافة والأدب بصلة، فمعنى أن يسب مثقف ومحب للأدب امرأة، ويصفها بالعاهرة لمجرد أنها قالت رأيها في أديب، فهذه

سفالة منقطعة النظير، لا يمكن لصاحبها أن يكون إلا إنسانا وضيعا حقيرا، عار كبير أن ينتسب للمثقفين، ولكنهم تمام كما وصفتهم هي بأنهم الحشرات الزاحفة.

وصافيناز كاظم كاتبة قديرة، وصاحبة فكر وناقدة لها اعتبارها وذوقها المتفرد، كثير من أبناءالجيل الحالي لا يعرف من هي صافيناز كاظم، إلا أنها زوجة الشاعر الراحل أحمد فؤاد نجم، وأنها أم الناشطة الثائرة التي اختفت من المشهد الثقافي كله.. نوارة نجم.

لكن من أراد أن يعرف من هي صافيناز كاظم، في شبابها وثقافتها وتفانيها وتفردها وجسارتها في العمل الصحفي، فليراجع مذكرات موسى صبري التي كتبها تحت عنوان (خمسون عاما في بلاط صاحبة الجلالة) ويرى ماذا قال عن الصحفية الشابة الجريئة صافيناز كاظم.

من أراد أن يعرفها كمثقفة.. فليقرأ لها أعمالها:

الحقيقة وغسيل المخ

الخديعة الناصرية

تاكسي الكلام

تلابيب الكتابة

رؤى وذات

رومانتيكيات

صنعة لطافة

في مسألة السفور والحجاب

مسرح المسرحيين
من ملف مسرح الستينيات
يوميات بغداد
أما عن انتقادها لبهاء طاهر، فلم يكن لموقف شخصي، وإنما لسياسة الرجل الديكتاتورية حينما كان من المهيمنين على مقاليد الثقافة المصرية، فيحجب الجوائز عمن يشاء ويرتضيها لمن يشاء، وهو بالضبط ما تواءم مع قولها بأنه كان كوابيس مرحلتي الثقافية. وقالت: " وأغرب شيء كان سيطرته على المجلس الأعلى للثقافة، وفي وقت عبدالناصر كان ناصريا، وفي فترة السادات كنت أنا وهو ومجموعة كبيرة من المثقفين من الذين تصور السادات أننا نؤيد العهد الذي لا يعجبه، وسافر إلى الخارج، إلى أن جاء عهد حسني مبارك، فأمسك بالمجلس الأعلى للثقافة، وأنا معاصرة له، وليس من الضروري أن أكون تأذيت منه شخصيا وإنما تأذيت من هيمنته غير العادلة، على الثقافة في مصر، فكان يقرر من يرتفع ومن لا يرتفع ومن يأخذ جائزة ومن لا يأخذ جائزة وكل هذه الأشياء يعرفها المعاصرون سواء كانوا من المجلس الأعلى للثقافة أو من الخارج حتى أنه توحش وأصبح يهيمن على الجوائز"
لقد كان النقد إذن في هذه النقطة من سياسته وفكره وأسلوبه غير المقنن في استحقاق الجوائز للموهوبين وهو أمر لا ينفصل كثيرا عن الموهبة التي يُبنى عليها حسن التقدير للمبدعين.. ثم إنه من رجال المرحلة الناصرية وصافيناز عدوة المرحلة الناصرية ويتبدى ذلك من كتابها

(الخديعة الناصرية) علما بأن صافيناز قد انتقدته في حياته كثيرا ولم تنظر موته حتى تقول رأيها، ولكنها أعلنته كثيرا جهرة دون موارية.

وأما بالنسبة لموهبته، فقد نتفق معها أو نختلف، لكنني أستدعي من قراءاتي مشهدا تذكرته للأستاذ الراحل عبد الوهاب مطاوع ، حينما أهداه بهاء طاهر روايته(نقطة الضوء) لقد دهش مطاوع من جمالها وأسف على تأخره في قراءتها واكتشافها، فهي تحفة فنية بالفعل كما قال، ثم ختم حديثه بجملة دقيقة قال فيها: "بل لعلها من أجمل أعماله، إن لم تكن أجملها على الإطلاق، لأنها من الأعمال التي تجمع بين المتعة والحزن"

ولعل هذا الكلام من مطاوع، يظهر أن بقية أعمال بهاء طاهر، لم تكن على المستوى المطلوب من الجمال والإبداع الذي يساوي روايته نقطة الضوء، والأديب الذي يبرع مرة ويتضاءل مرات يمكن أن نقول عليه بأنه متوسط الموهبة، وهي في اعتقادي رتبة غير هينة ، أما ان يكون رائعا على طول الخط، فهذا هو الأديب العبقري المبدع، الذي حاز صفته كبار الأدباء كنجيب محفوظ والحكيم وإحسان.

الإعلامية المغرضة لميس الحديدي، التي تريد أن تتكلم وتثير اللغط حتى بدون علم لتشغل مساحة من الحديث في برنامجها، اتهمت كاظم بأنه لم يكن من باب الذوق واللياقة حينما تصف راحلا بهذا الكلام وتنتقده بهذا النقد، ولعل لميس الجاهلة بالميدان الفكري والأدبي، لم تعرف ما فعله الحكيم بعد موت عبد الناصر حينما أخرج كتابا كاملا

تحت عنوان عودة الوعي يذم فيه الحقبة الناصرية بكل شرورها وآثامها، ثم تشيد لميس وتفتخر أن بهاء كان مناضلا وفر خارج مصر أيام السادات، وأقسم بربي لو أنها كانت في ذلك الوقت، لخرجت على الشاشة تتهم بهاء طاهر بأنه خائن عدو الوطن.

ألم تلاحظ أنني لم أبد رأيي في أعمال بهاء طاهر؟

وهل لو أبديت رأيي سيكون له اعتباره كرأي صافيناز كاظم وعبد الوهاب مطاوع؟

أفضل شيء أنني ناقشت لك الأمر والقضية من وجهيها ولك الحكم وحدك فيما تقرأ.

علما بأني لم أقدم لك رأي الناقد الكبير دكتور ابراهيم عوض في بعض اعمال طاهر، وتصريحه كناقد بأنها اعمال متوسطة القيمة.

لكن غاب شيء رهيب عن المشهد والعقل والتقييم، وهو غياب حرية الرأي والتعبير، وهو مناخ يقهر الحرية والديمقراطية، لقد فتحوا النار على المرأة وبلا رحمة، في محاولة لكبتها وقهرها وقطع لسانها، لكن صافيناز ولمن يعرف تاريخها وشخصيتها، ليست من هذا النوع الضعيف الذي يخاف ويكش ويستكين، ولو أن الميدان فتح لها، لسحقت كل من تطاول عليها وبقوة.

لكن الجهل أحيانا تكون له جلبة وبعض الغلبة.

خواطر الشعراوي تحزنني

لا تحسبن أنني ممن كانوا سعداء بسماع دروس الشيخ الشعراوي الشهيرة في التلفزيون المصري بعد صلاة الجمعة.

أبدا أبدا، لقد كنت كلما أستمع إليه، أجد حزنا وأسفا وضيقا كبيرا في نفسي.

أعرف الآن أنك يمكن أن تقول: ما هذا الكلام الفارغ، الذي يقوله كاتب هذه السطور؟!

هل هناك من يتجرأ لينتقد خواطر الشيخ الشعراوي التي أسعدت مصر كلها.؟

إن هذا الكلام، لا يصدر إلا من علماني فاجر، أو ملحد ساقط.

ولكن قبل أن تسير بك الظنون، وتوغل في عالم الاتهام، اقرأ وانظر في رأيي ووجهة نظري.

قدر لي من أزمان بعيدة، أن أستمع إلى الشيخ الشعراوي، في بعض الدروس والخطب والمحاضرات التي كان يلقيها بلغة المعلم والخطيب والمحاضر، بل بلغة الأديب صاحب البيان الرائع واللغة المذهلة.

استمعت إلى حديثه عن الهجرة النبوي، واستمتعت إلى محاضرته عن القضاء والقدر، وخطبته في وقفة عرفات عام ٧٦، وبعد حلقاته مع أحمد فراج.

يا أله ماهذا الجمال؟ وما هذه الروعة، وما هذا الإبهار.؟

ياله من رجل جبار، ومفكر عميق، وخطيب مصقع لا نظير له.

كانت هذه المحاضرات، تدل على رجل تدفقت فيه المواهب الربانية، وحباه الله تعالى، بروعة الحديث المؤثر، وهي التي يرجع إليها ذلك الاعتراف الكبير بقيمة الشيخ الشعراوي.

وبدلا من أن تزكي مصر هذا الجمال المفرد، عمل الإعلام على محوها، وتقديم صورة إبداعية بنكهة شعبية عامية، أعجبت فعلا طبقات كثيرة من المصريين والمشاهدين في كل مكان.

لكنها أبدا لا يمكن أن تقارن بجمال الشعراوي الخطيب والمحاضر، صاحب الإلقاء النوعي النابغ.

اعذروني فربما يكون هذا الرأي الغريب نابعا من أنني رجل أهوى الخطابة، وأولع بالإلقاء، وأعشق الأدب، وتبهرني ذهنية العالم والمتحدث الذي يصول ويجول في دنيا البيان، ويتلعب بناصية البلاغة باحترافية غير مسبوقة.

إن تخلي الشعراوي عن أسلوبه كان خسارة كبيرة.

أنا فعلا كلما شاهدت خواطر الشعراوي، أحزن كثيرا.!

بعض القراء قد يظن أنني أنتقد الخواطر الشعراوية، ولا شك أن هذا خطأ كبير، فقد خدم الشيخ الدعوة والدين لدى عموم الناس، بطريقة سحرية وفريدة، حتى المتخصصين أنفسهم أبهرتهم واهتموا بها.

وبعضهم يظن أنني أنتقد الإعلام والتوجه الحكومي، الذي حرص على تقديم الشعراوي بهذا النمط العامي الشعبي، ولكن كيف يغيب عنا فضل الإعلام وحرصة على تقديم هذه الهدايات العظيمة.

بعض من لا يستوعبوا كلامي، لم يركزوا على أنني ذكرت أنه حالة خاصة بي أنا كهاو للخطاب والإلقاء الأدبي، وأكثرهم لم يستمع لحديث الهجرة والقضاء والقدر التي قدمها الشيخ، ليعرف فرق ما أشير إليه، ويدرك معنى ما أتحدث عنه.

شوقي ليس بطلا

لا شك أن أحمد شوقي من معالم مصر، ورمز من هذه الرموز التي تتباهى بها على الدنيا في نبوغه، وعظيم موهبته، التي فاقت الحد والوصف في الجمال والإبداع.

لكننا نسينا هنا شيئا مهما وهو، أن شوقي بشر، يمكن أن يصيب ويخطئ، ويرتفع ويسقط، ويتسامي ويزل، ويعلو ويسفل، بل يتشجع ويجبن.

نعم هذا هو شوقي الإنسان، قبل أن يكون الشاعر، الذي نسج أبهى صور الشعر، وفرائد القصيد.

من قال بأن المبدع من الضرورة أن يكون زعيما وبطلا؟

ومن قال: إن الإبداع يعني البطولة والزعامة، والقوة الكبرى التي تحتذيها الشعوب في رموزها وزعمائها؟

فرق كبير بين المبدع والبطل.

وأنا واحد ممن يعشقون أمير الشعراء، ويهيمون بشعره، ويأنسون بكلماته.

لكنني بارع جدا في ذلك الفصل الذي لا يستوعبه الكثيرون، ولا يقدرون عليه، في التفريق بين البطولة والإبداع.

خاصة إذا كان في حياة المبدع ما يدلل على خذلانه من المواقف، بعيدا عن عالم الكلمات.

ما أيسر أن تقوم بين الجنود فتخطب فيهم خطبة عصماء، فتلهب حماستهم، وتشحذ قوتهم، وتسوقهم لسحق الأعداء.

لكنك لو دعيت للقتال والنزال، لوجدت في اللسان خرسا، وفي الهمة خوفا وتراجعا.

بعض المحبين لشوقي وشعره وأدبه، يعز عليهم تقبل هذا المعنى، ومحاولة نعته بالجبن والتخاذل.. ولهم العذر فقد تربوا على كلماته، وجميل بيانه، فكان في حياتهم نجما ساطعا، يخرج عن حيز الإنسان العادي، إلى حد العقل العبقري، والموهبة الفذة.

لكن الحقيقة لها مقاييس أخرى في الواقع والمواقف، فشوقي لم يكن معصوما، ولم يكن نبيا، وإن شئت فراجع سقطاته وزلاته التي رصدها العالم والناقد الكبير الدكتور شوقي ضيف في كتابه

شوقي شاعر العصر الحديث.

كان تأخر شوقي عن رثاء حادثة دنشواي خطيئة تاريخية، لقد تخاذل الرجل عن محنة بلاده، تزلفا للقصر وخوفا من الانجليز.

ثم هاهو يتلكأ في رثاء صديقه مصطفى كامل، ذلك الزعيم الذي انفطر قلب مصر على رحيله في ريعان الشباب.
ثم كانت ثالثة الأثافي وأبرز سقطاته في هجائه المر للزعيم أحمد عرابي.
ثم رابعة الدواهي حينما رثى بطرس غالي باشا جلاد دنشواي الأكبر، وأوصل مكانته في كلماته إلى حد الأنبياء والقديسين.
بل صوره في ثياب الوطنية العظيمة، وما الرجل إلا مجرما سفاحا، شارك في هدر أرواح الأبرياء من الفلاحين المساكين.

شوقي رضي الله عنه

في مقالنا السابق لم يستوعب كثير من الأصدقاء رأيي في أمير الشعراء وإنزاله من ساحة البطولة إلى ساحة البشر العاديين.
كنت أعرف أن لمسات النقد التي ذكرتها لن يتقبلها البعض، ولن يستسيغ رؤيتها، وذلك لما طُبع في أذهانهم من حداثتهم أنه أمير الشعراء الذي لم يجد الزمان بمثله.
لكنني فوجئت بما هو أبعد من ذلك وأخطر، فقد وجدت من رفعه إلى مقام الصحابة والمبشرين بالجنة، حتى أن بعض أحبتي قال وبالحرف الواحد: إننا إذا ذكر أمير الشعراء لا يجب إلا أن نقول: رضي الله عنه.

عجبا هكذا وفي لمحة خاطفة نسوي مقام الرجل بالصحابة الأماجد، والحجة كانت في الشيخ الشعراوي رحمه الله فهو أول من أطلق هذه المنقبة على أمير الشعراء.

ولكن هذا لا يعني أن الشيخ الشعراوي على صواب، فالرجل صوفي ومحب لآل البيت، ومجرد قصيدة نهج البردة لأحمد شوقي التي مدح فيها الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وسريانه على نهج بردة البوصيري، هو ما جعل الشعراوي ينصب الرجل في هذه المكانة العظيمة.

لقد عرفت في سيرة شوقي أنه كان معاقر للخمر، ونحن لا نعيره بذنب فيه فكلنا أصحاب ذنب، ولكن من العيب أن أنعت معاقرًا للخمر بما أنعت به الصحابة الكرام.

كما انتشرت في الآونة الأخيرة أخبار عجيبة غريبة لم نسمع بها من قبل، وفي نفس الوقت لا نستنكرها، ولكن للمرة الثانية نجد من يتقول بها ويروجها عالم صوفي على نفس نهج ومسار الشيخ الشعراوي.

وأجدد تأكيدي بأنني لا أكره أمير الشعراء، فأنا أكثر الناس إعجابا بأدبه وفنه ونظمه.

وأراه موهبة لن تتكرر في مشهد الحياة وعلى مستوى النابهين والمبدعين.

لكنني أكره الغلو وأمقت التطرف في المشاعر والعواطف، التي تدل في المقام الأول عن جهل بحدود الثقافة وأبعاد التقييم المعرفي.

يقول الدكتور أحمد عمر هاشم وهو عالم الحديث الصوفي، خلال لقائه مع الإعلامية «قصواء الخلالي»، في برنامج «أحاديث الفتنة»،: إن أمير الشعراء أحمد شوقي بُشر بالحسنى خلال مرضه الأخير قبل وفاته.

حيث ذهب إليه شيخ الأزهر وهو في مرض الموت، وأخبره أنه مبعوث من الرسول، وقال له: الرسول جالى في الرؤيا وقالي قول لأحمد شوقي: أنا في انتظارك"

ثم يقول هاشم:

رؤية شيخ الأزهر لأمير الشعراء كان بمثابة علامة على رضا الله عنه، وعلامة على شفاعة الرسول له على ما كتب من قصائد ومدائح في حق الرسول، والذي قال عن مدحه للرسول، «لي في مَديحِكَ يا رَسولُ عَرائِسٌ تُيِّمنَ فيكَ وَشاقَهُنَّ جَلاءُ.. هُنَّ الحِسانُ فَإِن قَبِلتَ تَكَرُّمًا فَمُهورُهُنَّ شَفاعَةٌ حَسناءُ».

وما يضيرنا من هذه الرؤيا التي تحمل البشري للشاعر الكبير، فعلاقة العبد بربه سريرة لا يعرفها أحد.

لكنني أعود وأكرر مرة أخرى: الرجل كان بشرا عاديا له صوابه وأخطاءه، كان يشرب الخمر، وكذلك كان يمتدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هو موهوب ونابغة ورائع، لكنه لم يعد في صورته إلا أن يكون مثيلا لهؤلاء الشعراء القدامي الذين كانوا يتكسبون بالشعر، فيمدحون ويثنون طبعا في الجزاء، ويهجون ويسبون طمعا في إرضاء السلاطين.

هو رجل موهوب وله لمساته الإسلامية وشعره الذي بعث بأجمل وأبها معاني الإسلام، وهذا مما يحسب له، لكننا أبدا لا يمكن أن نحذف من عقولنا ونحن نقيمه على المستوى الإنساني هذه الهنات التي ذكرتها من خذلانه لقضايا بلاده ومحن شعبه وأمته، وإرضائه السياده وأصحاب نعمته، ومدحه للجلادين السفاحين الذي أراقوا دماء الشعب كما فعل مع بطرس غالي باشا جلاد دنشواي الكبير.

شوقي شاعر كبير وملهم موهوب.. لكن أن نقول: إذا ذكر شوقي فلا يجب إلا أن نقول رضي الله عنه، فهذه كبيرة جدا تفوق حدود الرجل.

بل أرى أن أول من ينعت بها رجل كالعملاق العقاد، الذي قيل عنه: إنه أفضل من كتب عن الإسلام في القرن العشرين ودافع عنه.

ولكنه مع هذا كانت له مواقفه المخزية كنصرته لطه حسين في قضية كتابه الشعر الجاهلي..

وما زلت أقول: إن الإبداع شيء والعظمة والبطولة شيء آخر ، فلا يجب على العقول الواعية أن تخلط بين الأمرين وإلا وقعت في الحرج.

ثم يكيدني بعضهم في قوله:

ولكنه يبقى أمير الشعراء.. وكأنه قد فهم من كلامي أنني أهدم قامة الرجل وموهبته، مع أنني اعترفت بسيادته المطلقة شعرا وأدبا.

بالمناسبة ... مسألة شرب شوقي للخمر معروفة معلومة كل أبناء جيله يعرفها، وليست أبدى مما استوحيته من قصيدته في شهر رمضان المبارك:

رمضان ولى هاتها يا ساقي**مشتاقة تسعى إلى مشتاق.

حروفي لا تعبر عني

عرفت سيدة كانت كلما أرادت أن تعرف شخصية إنسان وطبيعته وميوله وأخلاقه ونوازعه وأفكاره، ظنت أن الطريق إلى ذلك سهل ميسور ، فما عليها إلا أن تفتح صفحته في الفيس لتقلب فيها وتنظر وتتأمل ومن ثم تُكون انطباعها عنه، وبهذا توهمت أن الطريقة السحرية لمعرفة الأشخاص ومغاليق ذواتهم صارت ملك اليد والعين والعقل.

كنت أناقشها في الأمر وأجزم لها أن ما يكتبه أي إنسان، ليس بالضرورة أن يعبر عن حاله ويشرح مآله، ويبين عن نوازع وجدانه، فربما يكتب أحدنا عن الحزن وهو سعيد، أو يكتب عن القوة وهو ضعيف، أو يكتب عن الشجاعة وهو جبان، أو يكتب عن الطاعة وهو من أهل المعصية، أو يكتب عن الكرم وهو أبخل خلق الله.

فإذا التقطت كلماته وبنيت عليه ضللت طريقك إليه وأخطأت في حكمك عليه، لأن أغلب الناس يَظهرون في صفحات الفيس التي تعرض مكتوباتهم واهتماماتهم، على غير ما تكون حقيقتهم، ومن حاول مجتهدًا أن يكّون رأيه عن الناس عبر سطورهم فقد أخطأ كثيرا وجعل نفسه أسير الوهم.

فإذا أردت الحكم على أحد فلا يكفي أن تقرأ ما كتب، بل عليك أن تخالطه في الحياة، لتنظر ما هو وكيف يكون؟، لأن الكتابة أحيانًا ما هي إلا مظهر من مظاهر الخداع التي قد يتزيا بها من أراد أن يتعامى الناس عن حقيقته.

فما أسهل الكلام لو كانت القضية كلاما.

هل تتخيل أن يكون هذا الرجل العملاق الذي أشاعوا عنه الحدة والبأس والعنف والقسوة كان ألين الناس حسًا وأرقهم فؤادًا وأرفقهم رحمة وشفقة؟!

نعم هكذا كان العقاد الذي ظلمه الناس وظنوه جبارًا عنيفًا قاسياً جافاً.! ظنوا عنه وفيه أنه لا مكان للقلب والعاطفة في نفسه ووجدانه، لأن الذي سيطر عليه إنما هو المنطق والتفكير، فهذه حياته يقضيها في جد صارم، لا تفتر شفتاه ببسمة أو ضحكة واحدة إلا بعد استغفار وأوبة.!

أما هو فقد أقسم بأن هذا الذي يراه الناس إنما هو رجل لا يعرفه ولم يره ولم يعش معه لحظة ولم يلتق به في طريق، بل إنه كما يقرر أن نقيض ذلك هو الصواب، فهو رجل مفرط في التواضع ومفرط في الرحمة واللين، رجل لا تلفت لحظة واحدة من ليله أو نهاره من سلطان القلب والعاطفة.. إنه العقاد الحساس الذي لم يكن يدرك الناس أنه كان قمة في هذا الميدان.

والناس لا يلامون على ذلك فهذا ما جناه عليه قلمه وحدته في معاركة وخصوماته التي أعطت هذا الانطباع للناس، فكان من نظرتهم له ما كان.

بل هل تتخيل أن يكون الدكاترة زكي مبارك الذي ما عرف أحد في معاركه مع خصومه بمثل ما عرف شراسة وكبرًا وغرورًا وتيهًا وتعاليًا، حتى تتخيل أنك لو لقيته في الطريق، فإنك تجد العُجب الغرور والكبر يتساقط منه، وله من آثاره ما يدل عليه.

لكن هل تتخيل أن من المفارقات في شخصية هذا الأديب، أنه كان عنيفًا في مناقشاته وحملاته القلمية، ولكنه في التحدث مع الناس لم يكن كذلك، بل كان يتلطف برغم ذلك التعاظم.

كنت أتذكر ما قيل لي قديمًا من أحد الدعاة أيام الحقبة الناصرية والاحتلال الإسرائيلي لسيناء أن الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف في ذلك الوقت أمر بطباعة رسالة الدكتوراه للباحث محمد سيد طنطاوي، وكانت عن بني إسرائيل في الكتاب والسنة، وكانت الرسالة تطبع وتوزع على الأئمة والخطباء، وتذهب إلى جبهات القتال، وكان الناس وقتها يتخيلون أن محمد سيد طنطاوي وحسب ما يشاع وما فرضته ظروف الرسالة المكتوبة، أنه عالم شجاع مغوار من طراز العلماء العظام كالعز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم من الجهورين بالحق والمناضلين فيه، وبعد ظهوره في الإعلام ومعرفة الناس به، رأينا

أنه لم يكن كما ظنناه من هذا الطراز الذي يمكن أن يجهر بالحق في وجه أي خطأ.

يمكن لي أن أكتب لك أحسن كتاب في الثبات والشجاعة والوفاء والكرم، لكن لا تلزمني أن يكون هذا المكتوب تعبيرًا عن حالي، أو أنني أمثله، فأنا قد أحسن الكتابة والتعبير، لكني لا أحسن التنفيذ والتحقيق.

وليس ما أتكلم عنه الآن هو قانون الحياة والقاعدة العامة التي يسير عليها الناس، فأنا أريد القول: إن من يكتب شيئا لا يعني بالضرورة أن يكون تعبيرًا حيا عنه.

وهناك لا شك من يكتبون ما يعبر عنهم ويشرح حالهم، من أهل المبادئ والصدق والقلب النقي السليم، فنحن لا نشيطن العالم من حولنا، ولكننا نلفت أن الاحتكاك بالناس في الواقع العملي، هو أصدق نتيجة وأصوب انطباع ومعرفة للبشر إن أردنا أن نعرفهم.

شكرًا عادل زعيتر

الترجمة عمل شاق عظيم، تتطلب من صاحبها ومن يقوم بها، شروط ربما تتوفر في صاحب المؤلف نفسه، حتى يستطيع استيعاب العلم الذي ينقله، فيفهمه ويفهمه للناس والقراء.

والحق أننا أمام أمر خطير، فحينما لا يكون المترجم أمينًا صاحب غرض، تحدث كارثة ضد الحقيقة والبرهان، تكاد تشوهه، وتنفيه وتغلوش عليه.

لو قام أحد الناس مثلا ليترجم كتابًا من الكتب، يخالف فكره ومعتقده الذي يدعو إليه ويؤمن به، فهل تراه يترجم بأمانه ما يخالف أفكاره، أم انه سيحرفها ويبدلها، منتصرًا لهواه وأغراضه؟

قد يفعل هذا من لا ضمير لهم ولا خلق، ممن ينتسبون للثقافة والمعرفة، ومن أصحاب الأقلام والفكر.

فهب مثلا لو قام يوسف زيدان أو إبراهيم عيسى أو خالد منتصر او إسلام البحيري، بترجمة كتاب لمؤلف غربي ينصف فيه الإسلام، فهل تراهم يرجمون بأمانة، ويحكمون بموضوعية؟

إن إيماني ويقيني بباطلهم الذي يتعصبون له، يخبرني أنهم سيبدلون ويزيفون، حتى لا يعلم المسلمين أن من أبناء الحضارة الغربية، من قام بمدحهم وإنصافهم والثناء على ملتهم.

ولأنهم لا تعنيهم الحقيقة في شيء، فما يهمهم هو بغض الإسلام، والترويج لكل عمل يلقي عليه ظلال الشبهة والريبة.

ولعمري.. إن هؤلاء وأمثالهم يزيفون الحقائق العربية التي لا تحتاج إلى شرح وترجمان، فكيف بالله عليك يكون صنيعهم فيما دون العربي من الكلام.؟!

انظر ما فعله لويس عوض وهو رأس من رؤوس التغريب والزيف، ولولا أن قيض الله للعربية فارسها المغوار محمود شاكر، لاستطاع هذا الكاذب وأمثاله، أن يغيروا على صرح الحقيقة يزيفون منها ما يشاؤون، زعم لويس أن ثقافة المعري ليست أصيلة فيه، وإنما هي من فكر أجنبي تأثر به، وخرج له العملاق من عزلته، حينما لم يجد أحدا يرد زيوفه، وأصاب لويس عوض الذعر والهلع من مقالات شاكر التي فضحته بين أوساط المثقفين، وكشفت عن ضعف ثقافته حتى في تخصصه في الأدب الإنجليزي حين كشف شاكر عن فساد ترجمته العربية لمسرحية الضفادع لأرسطوفان، وراح لويس عوض يطوف على المجلات والصحف يستنصرهم ضد شاكر ويزعم أن المعركة بينهما معركة دينية، ولم يتوقف شاكر عند كتابة مقالاته حتى أغلقت مجلة الرسالة نفسها، وألقي به في غياهب السجن سنتين وأربعة أشهر.

إنهم يفعلون هذا بالتراث المقروء والمفهوم بين أيدهم وأيدي أبناء لغتهم، فكيف يفعلون إذن بالمترجمات الأجنبية.؟

بقي أن تعرف أن الذي دفعني إلى كتابة هذه الخاطرة في هذا المقال، ما قرأته لشيخنا الدكتور البيومي وهو يرد أكاذيب المرجفين من المتحاملين على الإسلام وحضارته من كتاب ومؤرخي الغرب، ومنهم وجستاف لوبون الذي أظهر في مؤلفاته إنصاف الإسلام وحضارته، فكان عقبة في وجه بني قومه ممن يجحدون حقائق الإسلام غيضا وكمدا.

فماذا قال مولانا البيومي حول هذا الشأن، لقد عمد في نهاية ردوده واستشهاداته بما لا يخطر على بال، حينما امتدح مترجم كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون وهو الأستاذ عادر زعيتر فقال: " ولا أنسى أن أذكر أني اعتمدت على الترجمة الأمينة التي خطها الكاتب العربي الكبير الأستاذ عادل زعيتر، فأسدى لأبناء دينه ما أسداه للحقيقة الناصعة من يد لا تجحد، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه أحسن ما يجزي به كل مثابر أمين"

وهكذا يكون عمل (عادل زعيتر) وكأنه هو الذي رد الافتراءات، وهزم أهل الجحود، وفضح أعداء الحقيقة، وهو لم يؤلف ولم يفكر، وإنما فقط ترجم بأمانة، فكانت لأمانته شأو عظيم وتأثير كبير.

الرجل الذي أحيا التراث المفقود

ربما تلهمك صورة سيد قطب أنني أتحدث عن معتركه الإسلامي والسياسي وآرائه الفكرية، لكنني أحب أن أسجل هنا ابتداء وقبل أن يقرأ القارئ أي حرف أو كلمة، أن هذا الكلمات، لا تتناول السياسة، ولا تتحدث عن صراع الفكر الديني والعلماني، وإنما هو مقال أدبي، يعرض لرجل كانت له بصماته الإبداعية في دنيا البيان ومسيرته الفكرية. مهما اختلفت مع سيد قطب أو اتفقت معه، أحببته أو كرهته، وصفته بالهداية أو الضلالة، يبقى اسمه يرن بقوة جارفة في دنيا الأدب، فقد كان

من كبار الأدباء والنقاد، وكان تلميذا للعقاد ويعتز به كل من صاحبه وزامله في المشوار الأدبي، ويشهد بنبوغه العقلي وإبداع الفريد، أنيس منصور قد جمعتهما التلمذة على يد العقاد، وعبد الحميد جوده السحار وغيرهم كثيرون، وإليه يرجع الفضل في ظهور نجيب محفوظ، حينما كتب عن روايته كفاح طيبة وامتدحها مدحا عظيما، وكان وقتها ناقدا أدبيا له اسمه الفذ المدوي، ولو قدر لسيد قطب أن يظل حبيس الأدب وحده، ولم يدخل المعترك الفكري والسياسي، لكان له اليوم حظوة عظيمة في دينا الأدب، ولربما كان اليوم في مقام طه حسين أو العقاد أو نجيب محفوظ، ولربما أقمنا معرض الكتاب شرفيا باسمه، وقررنا كتبه على المدارس والمعاهد، ودرست في الجامعات، ونصبنا تمثيله وعلقنا صوره في قصور الثقافة والمكتبات العامة، أو أقيم له مسلسل أو فيلم سينمائي يجسد حياته، لكن السياسة والصراع مع السلطة، حرمه من كل ذلك، لكنه في نفس الوقت لم يحرم التيار الديني أن يضيف إلى رصيده، بما كتب فيه من أبحاث فكرية واجتماعية، و تفسيره لظلال القرآن، الذي حينما تقرأه تشعر بطعم مختلف للقرآن الكريم، بما توصل فيه من فهم وحسن تعبير.

الشيخ الشعراوي على قدر نباهته في التفسير، كان قلبه ينتفض، وتشعر بمهجته تستيقظ، ونشوته تشرق، حينما يستشهد بأقوال سيد قطب وتحليله وفهمه للآيات، كما سألت شيخنا الدكتور محمود عمارة عن

أفضل كتاب قرأه في التفسير، فقال لي: الظلال هو التفسير الوحيد الذي أثر في وجداني وتعايشت معه بروح عما عايشت غيره.

ونحن اليوم نريد أن نؤكد أن مقالنا هذا مقال أدبي بحت، لا شأنه له بالسياسة أو الإخوان، أو أي دعاوى أخرى أشيعت أو أقيمت أو ألصقت بسيد قطب، وإنما نحن اليوم بصدد التذكير بقيمة أدبية عظيمة، لا تحتفي أو تفتخر بها دنيا الفكر وحدها، وإنما تحتفي بها مصر كلها لأنها، من نتاج أرضها و صاحبها من عباقرة أبنائها.

وأقول مجددا:

إن أي محاولة يدفع بها الهوى والغرض والبغض للتنكر لسيد قطب أديبا عملاقا، لهي جريمة ومنكر في حق الأدب والإبداع، وظلم لا تقبله الثقافة أو يرتاح له ضميرها.!

كانت دهشتي كبيرة حينما أخبرني الباحث الدؤوب العاشق لسيد قطب وأدبه الإعلامي القدير الأستاذ علي عطية أن سيد قطب له ديوان الشاطئ المجهول، وروايتين أشواك والمدينة المسحورة، وسيرة ذاتية بعنوان طفل من القرية.

وهي الطلائع الأدبية التي شكلت توجه الأستاذ سيد في بداياته، ولولا التغير الكبير في حياته، لكانت لهذه الأعمال شنة ورنة، ومكانة تذكر فيها وبها، ولما اعتراها النسيان كما اعترى كثيرا من تراثه ومقالاته وأشعاره، لأنه بالتوجه الفكري اندثر من دنيا الأدب، أما الإسلاميين، فلا يعتنون

إلا بما كتب في الاسلاميات، ومن ثم تراهم لا يعرفون شيئا عن قيمته الأدبية في ميدان الرواية والقصة والشعر.

بقي هنا أن نشير ونسجل الامتنان الكبير لباحثنا المقدام الأستاذ علي عطية، والذي استطاع أن يقدم خدمة جليلة للأدب العربي حينما شحذ عزيمته، وشمر عن ساعد الجد، وصرف جهد زمانه وزهرة عمره في هذا المشروع العظيم، الذي جمع فيه تراث الأديب الكبير سيد قطب.

فقد أكمل موسوعة (الأعمال الأدبية والنقدية المجهولة لسيد قطب) وهى ٨ مجلدات كاملة، استغرق جمعها من بطون الصحف والدوريات المصرية والعربية أكثر من ثلاثين عاما، وهى ترصد كل ما كتبه، منذ أن بدأ الكتابة من عام ١٩٢٤ وحتى نهاية ١٩٥٤، حيث الاعتقال والمحاكمة، حيث كان قطب ذو نشاط أدبى كبير وهمة عالية في تلك الفترة، وقد أبدع وأجاد في أدبياته ونقده حتى صارت تلك الفترة من أخصب الايام والسنين من تاريخ أمتنا العربية.

مكث الأستاذ علي عطية أكثر من ربع قرن يبحث وينقل في المكتبات وخزائن الكتب في مصر وخاصة القديمة مثل دار الكتب المصرية ومكتبة معهد البحوث والدراسات العربية والجامعة الأمريكية بالقاهرة حتى تمكن بفضل الله من جمع تراث صاحب الظلال الأدبي، والحفاظ عليه قبل أن يتهالك ويندثر من هذه الدوريات.

صنف الصحفي القدير أستاذ علي موسوعته تحت عدة كتب

الأول: الاعمال الشعرية الكاملة

الثاني (على هامش النقد) ١٩٣٤
الثاني والثالث والرابع والخامس (معارك سيد قطب الادبية والنقدية) وهذا الكتاب في اربعة مجلدات
السادس السابع والثامن، (الاعمال الروائية والقصصية وهي تحتوي على روايات وقصصه البصرية ورأى النقاد وطلاب الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه
كل التحية والامتنان والتقدير البالغ والكبير، لهذا الرجل الذي استطاع أن يحيي لنا التراث المفقود، لعبقري البيان، ويجلي الحقيقة الأدبية الكبيرة والمطمورة والتي لم نكن ندرك عنها شيئا في حياة الأستاذ سيد قطب، ولو كان الأمر بيدي لمنحته جائزة ثقافية فريدة، فما قام به ليس بالشيء الهين والبسيط.

الأضابير

كان شيخنا الدكتور محمود عمارة رحمه الله كثيرًا ما يطلق هذه اللفظة على تلك الأوراق التي يكتب فيها خواطر وتأملات وأفكار يهديه إليها وحي الكتابة، والتي تتضمن كنزا ثمينا من الفوائد العظيمة.
كل عالم يكتب ما يعن له من الرؤى والهدايات ثم يركنها حتى يأتي وقتها، وتنضم إلى ما يناسبها من موضوعات.. وتظل هكذا تتراكم

الأوراق فوق بعضها وتنضم كل إضبارة إلى أختها، حتى تجسد جواهر ثمينة متناثرة، تسعد بإشراقاتها لو قرأتها.

وكل عالم من العلماء حينما يموت خاصة من أرباب التصنيف، تجد في أوراقه ومخلفاته مثل هذه الأضابير الفريدة التي تشكل ثروة علمية عقلية ذهنية معرفية قيمة، لكن المحزن أن كثيرا من هذه الأضابير تضيع هباء تذروه الرياح، لأن أسرة العالم حينما يرحل عن الحياة تظنها أوراقا لمسودات منتهية أو مخلفات لا قيمة لها، فتبادر بحرقها أو رميها في القمامة دون أن تدري أنها تحتوي على علم ودرر لا تقدر بثمن.

بعض أبناء العلماء مازالوا يحتفظون بهذه الأوراق، ولكن حفظهم لها، لا لاعتقادهم بأن فيها علما مقدرا يحفظونه، ولكن لأنها بخط أبيهم، فهي تراث يعتزون به، وحنينا وأثرا يذكرهم بأيامه.

أنا نفسي ما زلت أحتفظ ببعض ما كتبه والدي رحمه الله من مقالات وأشعار بخط يده، وأول ما تبعثه في ذاتي هي الموعظة، إذن يموت الإنسان ويبقى ما كتبت يداه، وأتذكر قول الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ** ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيءٍ ** يسرك في القيامة أن تراه

وأحيانا يكون الخجل العلمي دافعا لبعض العلماء ومانعا لهم عن نشر أوراقهم ظناً منهم أنها لم تكتمل بعد، وأنها دون المستوى، ولا تنسجم مع مكانتهم ومقامهم، فيأخذهم الموت وهي لا تزال في طور المخاض.

لقد كادت بعض أعظم التحولات المعرفية أن تُقبر مع أصحابها لولا تدخل الأقدار، ومن هؤلاء ابن خلدون الذي ترك في مسوداته ملاحظات وتعديلات دقيقة على المقدمة والعبر، ولو لم تخرج هذه المسودات للنور وتُعتنى بها، لفقدنا النسخ الأكثر نضجاً من فكره العمراني.

وكذلك أبوالوفاء المبشر بن فاتك إذ يُحكى أنه كان من أصحاب الكتب، ولما توفي تركت زوجته أضابير كتبه ومسوداته، ولولا اهتمام تلاميذه ومحبي العلم بجمع تراثه لضاعت حكمة (مختار الحكم ومحاسن الكلم).

وكان الحسن بن الهيثم رائد علم البصريات رغم شهرة كتابه المناظر، إلا أن الكثير من إسهاماته في الرياضيات والفلك ظلت حبيسة أضابير ومسودات لم تُحقق وتُنشر إلا بعد وفاته بقرون. اكتشاف مسوداته حول تربيع الدائرة ومقالاته في الهندسة اللاإقليدية أثبتت للعالم أن الرجل سبق زمانه بمراحل، ولولا العثور على هذه الأوراق المبعثرة في مكتبات إسطنبول والقاهرة، لظن العالم أن عبقريته اقتصرت على الضوء فقط.

ويُذكر عن الامام ابن القيم أنه ترك خلفه كميات هائلة من الأضابير والتعليقات التي لم تكن كتباً مكتملة، وعني بها تلاميذه، وعلى رأسهم ابن رجب الحنبلي، بذلوا جهداً مضنياً في تتبع هذه الأوراق وجمعها، كتاب مثل بدائع الفوائد هو في أصله أضابير من التأملات المتنوعة في

التفسير واللغة والفقه، لو ضاعت لضاعت معه كنوز من الاستنباطات التي لم يسبقه إليها أحد.

وكان الإمام السيوطي رحمه الله يكتب في كل فن، وعند وفاته وُجدت في خزانته أضابير لمشاريع كتب ضخمة لم تكتمل، وبعض هذه الأوراق كانت عبارة عن نكت وملحوظات دقيقة على كتب الأقدمين، لولا أن تلاميذه اعتنوا بهذه المسودات ونقلوها، لما وصلتنا بعض آرائه المتأخرة التي تراجع فيها عن أحكام سابقة، مما يصحح مسار الفهم لتطوره العلمي.

وعندما توفي الفيلسوف الفرنسي باسكال، ترك خلفه آلاف القصاصات الورقية المبعثرة والمربوطة في أضابير غير مرتبة، كانت هذه الأوراق تحتوي على أعظم تأملاته في الوجود والإيمان والفلسفة، قام أصدقاؤه وأقاربه بجمعها بجهد جهيد لخرج للنور واحد من أعظم الكتب الفلسفية في التاريخ وهو كتاب الخواطر، لو أهمل الورثة هذه القصاصات، لضاع إرث باسكال الفكري الأكثر عمقاً.

ويمثل كافكا النموذج الأبرز لخطر الضياع؛ فقد أوصى صديقه ماكس برود بحرق كل أضابير قصصه ومسودات رواياته التي لم ينشرها، لكن الصديق أدرك فضل هذه الأوراق ورفض تنفيذ الوصية، فنشر المحاكمة والقلعة، وهي الأعمال التي جعلت من كافكا أيقونة عالمية. هنا نرى كيف أن وعي المحيطين بالعالم أو الأديب هو طوق النجاة الوحيد لهذا التراث.

ويعد ليوناردو دافنشي المثال الأشهر عالمياً؛ حينما ترك آلاف الصفحات من الأضابير المليئة بالرسومات الهندسية، والتأملات التشريحية، والأفكار التي سبقت عصره بمئات السنين وظلت هذه الأوراق مشتتة لعقود، وضاع جزء كبير منها بسبب عدم إدراك الورثة لقيمتها العلمية في حينها.

وتفاديا لهذا أنصح كل عالم أن ينشر أضابيره قبل أن يموت، فإنه لا يدري هل يذهب بها أبناءه إلى القمامة من بعده أم يحبسونها كذكريات منه.. انشر أضابيرك ليستفيد بها غيرك.

انشروا أضابيركم وهي لا تزال تنبض بحرارة أنفاسكم، لا تتركوها أوراقاً صماء يقرأها من لا يعرف سياقها، أو يطويها من لا يقدر قيمتها، إن زكاة العلم نشره، وكمال النشر أن يخرج العمل في أتم صورة يرضاها صاحبه، لا أن يُترك نهبة للضياع أو التشويه بعد الرحيل.. إن الأضابير هي الروح الثانية للعالِم، فلا تسمحوا لهذه الروح أن تُخنق في غلاف ملف منسي.

إن الأضابير هي الخلايا الجذعية للفكر؛ منها تولد الكتب العظيمة، وبموتها يُبتر جزء من عقل الأمة.

أفورة وطنية

لو أن إنسانا أحب امرأة وظل طوال الليل والنهار وفي كل لحظة وكل ثانية يقول لها: أحبك أحبك، لملَّت وضجرت من هذا المونولوج المتكرر، ذلك لأن النفس تنفر من التكرار حتى ولو كان جميلا.

أذكر أنني كنت في السعودية، وكنت أعمل بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجاء وقت عيد الأضحى وأشرفنا على الذبائح ووزعناها على كل من نعرف وبقي لدينا الكثير، كنت كل يوم آكل من هذه اللحوم التي وزعت علينا حتى كرهتها، وكرهت رائحتها، ووصلت لدرجة التموع النفسي، وصرت إلى اليوم أعافها في كثير من الأحيان حينما أتذكر هذه -الميغة- الكبيرة.

لماذا أسوق هذا المشهد؟

سأخبرك ولكن قبل هذا تأكد جيدًا أنني أحب وطني مصر، حبًا عظيمًا، وربما أحبها أكثر منك وأكبر منك، لأنها الوطن الذي يكون حبه فطرة وطبعا يجبل عليه الإنسان، وعلى هذا فلست مطالب في كل لحظة وحركة وسكنة أن أعلن لك ولغيرك أنني أحب مصر، لأنه حب لا يحتاج إلى إعلان أو إظهار، فهو طبيعي وفطري، لكن بعض الناس يحلو لهم هذا المسلك الغريب، فتراه صبحا ومساء، ليلا ونهارا، يقظة ونوما، يسمعنا موشحات في حب الوطن، وتغريدات في عشق مصر، يغني لهواها ونسيمها وشمسها وقمرها وترابها ونيلها وصحرائها وطينها، بشكل زائد عن الحد، وغريب عن الطبيعة البشرية، وهو المعنى الذي

أردته في العنوان بأنها -أفورة- وطنية، فإذا حدثته في حديث يقول لك: مصر، وإذا طلبته في مشورة يذكر مصر، وإذا سألته سؤالا يكون الجواب مصر، وإذا أردته في عمل يصيح في وجهك: مصر مصر، وإذا نظرت صفحته الزرقاء وجدت كل شيء فيها عن مصر، الأغاني عن مصر والموشحات عن مصر، حتى علم مصر يصبغ به كل مكان، ولو طال أن يفصل منه ثوبا يرتديه لفعل.

حتى استقر في روعي بيقين أن أمثال هذه النوعية من الناس -المأفورة- لا يحبون أصلا مصر، ولأن انتماءهم لها ضعيف مهترئ، فهم يحبون دوما أن يذكروا أنفسهم، بهذا الحب الذي لا يجدونه في صدورهم كل دقيقة، فهم في بعض الأوقات يرون أن مصالحهم ارتبطت بشعار حب مصر، ومن ثم يرددونه بكثرة، وإذا أصبحوا في حال حتى ولو كان ضد مصر وضد مصالح مصر ومستقبل مصر، رأيتهم يخدعون أنفسهم بهذه الهيستريا من منولوج حب مصر، يريدون أن يؤكدوا للدنيا أنهم على الطريق الصواب الذي ينهض بمصر، وأن خطأهم حينما يتغنوا بمصر، يتخيلون أنهم بهذا يقنعون الدنيا كلها أنهم عشاق الوطن والذائبون في ترابه.

ولكن الحقيقة أنهم يحبون أنفسهم وأهوائهم ومصالحهم فقط، وليس لمصر دخل في الموضوع.

فأحدهم مثلا حينما اراد ان يدافع عن السلفية ضد خصومها وناقديها، إذا به يعلق قائلا: السلفية صمام أمان لمصر.. نحن نناقش أفكارا وننقد

تيارا فلماذا تزج بمصر في القضية، وهكذا كل من سولت له نفسه أن يزكي طريقه، فما عليه إلا أن يلصقه بمصر.

(وكل يدعي ولا بليلى)

تماما ككثير من العلمانيين والملحدين، تجدهم حينما ينشرون إلحادهم وجحودهم لثوابت دينهم، يذكرون مصر والوطنية، وأنهم بهذا الفكر حماة البلد وحراسها الذين يخافون عليها ويخدمونها بأفهامهم وأعمالهم، وهي خديعة ماكرة، لأنهم لو أحبوا وطنهم، لحافظوا على عقيدته ودين شعبه، ولم يبثوا فيه الشبهات كي يدمروا دينه وثوابته.

تجد العلماني حينما يتكلم في أفكاره، لا يمكن أبدا أن يتكلم ويعرض شبهاته، إلا ويمزجها بحب الوطن والخوف على الوطن، وأنهم أكثر الناس حبا للوطن، ولعمري لهم أشر الناس على الوطن الخراب الذي يهدد أمنه واستقراره.

وهكذا صار الزج باسم مصر ألعوبة ومضغة على لسان كل أفاك أثيم.

ولكي تفهم حديثي أكثر أذكر لك حادثة وقعت عام ١٩٢٤م حينما كتب الصحفي الكبير محمد التابعي نقدا فنيا لمسرحية حور محب، فهل تتخيل أن ما أصابني اليوم من هذا النفور المتكرر، هو نفس ما لمسه الأستاذ التابعي حينما استمع هذه المسرحية؟!

يقول الأستاذ التابعي في نقده الذي كتبه عن المسرحية: "وقد شاء المؤلف ألا يعارض تيار النهر، فحشر في كل مناسبة وغير مناسبة تلك الجمل الجوفاء التي يبتاع بها تصفيق الجمهور، ولكنه بثمن بخس وضع

في فم كل ممثل ممثلة شيئًا عن مصر وحب مصر ومجد مصر وقوة مصر، ولا تمر عليك عشر دقائق إلا وتسمع مونولوجًا أو محاضرة عن مصر، حتى أعداء مصر قام ملكهم، وهو في ساحة القتال، يتغنى بمجد مصر وقوة مصر". ثم قال التابعي: "وبعد يا سيدي المؤلف، ألا ترى أنك أسرفت كثيرًا في حب مصر؟ جميل أن تتغنى بحب مصر، وجميل منك أن تفرح قلوبنا بمجد مصر وعظمة مصر، ولكن الشيء إذا زاد عن حده مُجِّه الذوق السليم وخسر كثيرًا من قيمته".

إن حب الوطن لكي تتغنى به يحتاج إلى ثقافة ومعرفة وكيفية، فلا يكفي فقط أن تكون مصر في القلب، وإنما لابد من العمل والجهد والسلوك والحكمة والفهم والاختيار الرشيد الذي يجعلك فعلا محبا لوطنك بإخلاص وعقل، لأن الحب بالقلب وحده لا يكفي، وإلا كنت ك"الدبة التي قتلت صاحبها"

وهو المثل الذي عرف في حكاية قديمة تُروى عن رجل ربّى دبة وأصبحت صديقته المقربة، وفي يوم من الأيام، حاولت الدبة أن تطرد ذبابة كانت تزعج صاحبها وهو نائم، فضربت الذبابة بصخرة فقتلت صاحبها من حيث أرادت أن تنفعه.!

الانتقام من العربية

هناك تيار يعمل في الخفاء يصر على إيقاظ الانتماء للعامية المصرية في مواجهة اللغة العربية الفصحى.. ويضخم الأمر ويريد أن يجعل منه قضية وطنية كبرى، وهذه الزمرة التي لا تفقه معنى الانتماء، تتصور أن مصر لها سمتها وذاتيتها وشخصيتها التي يعيبها أن تتبع فيها لغة العرب وتقيم لها وزنا وتنشئ لها اعتبارا.. وغاب عنهم أن هناك دين تسقط معه وأمامه أي اعتبارات وتحسبات.

وهؤلاء لولا أن دين البلاد هو الإسلام وكتابه القرآن لتنصلوا منه وتنكروا له.

إنهم لم يجدوا طريقة لرفض العربية وإعلان شخصية مصر حسب رؤيتهم، إلا عن طريق الفن والمسلسلات التي تصل إلى كل بيت عبر الشاشات والفضائيات.

نعم لتنزل اللغة العامية المصرية وتكون أداة التعبير لكل شيء، حتى المسلسلات التاريخية، تحذف منها اللغة العربية، وتحل العامية المصرية محلها، وما درى هؤلاء أنهم يقضون على الجمال ويرفضون الحسن والإبداع والذوق والفن الذي يعتمده إيقاع العربية وموسيقاها اللفظية، والتي لا يمكن أبدا للعامية أن تحل محلها أو تعبر بشيء من جمالياتها.

كان هناك إصرار كبير في العام الماضي على إخراج وإظهار مسلسل الإمام الشافعي باللغة العامية المصرية، فماذا كانت النتيجة؟

فشل المسلسل فشلا ذريعا ولم يستطع أن يعبر عن الإمام الشافعي ومكانته أو عصره أو حراكه العلمي بالشكل المطلوب.. وكل من يكابر في هذا ويزعم بنجاح المسلسل فهو يخدع نفسه.

لا يمكن للغة المصاطب والشوارع والحواري أن تعبر عن قيمة تراثية علمية فكرية، وحينما نعلن عن هذه الآراء نجد بعض الحمقى يصدر لنا في جداله كلمة (مصر) أي أننا نمتهن مصر وتراث مصر وأدبيات مصر وفلكلور مصر، ويحاول أن يصورنا بأننا لسنا وطنيين، ولا أعلم ما دخل مصر بالأمر أمام الفن والجمال والابداع.

بل ان أمثال هؤلاء هم أبعد ما يكونون عن الوطنية لأنهم يفرطون في لغة العقيدة التي يؤمن بها هذا الشعب.

وأنا أقسم أن اللغة العامية ضد الابداع وضد الجمال، وأنها فاشلة فشل ذريعا في التعبير عن مضامينه التي تتاح للعربية الفصحى على أوفى ما يكون.

كانت هناك في العام الفائت من رمضان آلة إعلامية عجيبة تصر أن تجعل من الممثل خالد النبوي عبقري زمانه وأسطورة مكانه، وأن هذا العبقري الموهوب سيمثل ويجسد شخصية الإمام الشافعي، وأنه أظهر الشافعي وأتقن دوره على أوفى ما يكون.

أما أنا فأقسم أن الفتى الممثل كان متكلفا متصنعا لا لون له ولا طعم، فاتر بارد، وأنه أفسد شخصية الإمام الشافعي التي يتخيلها وجداني،

فلا أعلم لماذا هذا الإصرار على أنه عبقري وملهم وموهوب وفريد ومتميز وفلتة وغير ذلك من الخداعات والأكاذيب الإعلامية.

ويمر عام ويأتي هذا العام ليخرج مسلسل الحشاشين بنفس اللغة العامية المصرية المتعمدة، وأنا أكرر وأهيب وأندد بهؤلاء المساطيل، ما علاقة الاعتزاز بمصر كوطن وبلد في نفس كل مصري، وبين عزل اللغة العربية عن التعبير؟!

ولاشك أن المفتعل لمثل هذه الشقة الغائرة جاهل مأفون ساذج أبله.

إن هذا التصور لا يقوم عليه إلا عدو لعقيدة هذا الشعب ودينه وقرآنه الذي نزل باللغة العربية الفصحى، وإن تمحية اللغة من قيادة الحوار الفني إعلان كبير بالفشل، يقف وراءه عناد أحمق لعقول لا تحسن الذوق والفهم والفن.

منذ أيام خرج الناقد الفني الأستاذ طارق الشناوي، ليضحك على نفسه أو يضحك على الناس حسبما يرتئي إذ يقول: "لن يؤثر الحوار باللهجة العامية المصرية على مسلسل "الحشاشين؛ لأنه ليس هناك قاعدة، مشيرا أن الناس من اعتادت على تقديم الأعمال التاريخية والمسرحية باللغة العربية الفصحى، كما اعتقدوا أن هذا هو الصحيح فقط، لكنها ليست قاعدة، وأن نجوم الأعمال التي تقدم باللهجة المصرية لم يرتكبوا أي خطأ".

ويقول كذلك: «إحنا توارثنا ده، لكن هل ده هو القاعدة؟ هل هذه هي الحقيقة المطلقة؟ الحقيقة لأ"

وهكذا تتحول القصة في اعتباره إلى مجرد تعود وتوارث يمكن أن يتغير ولا نقبع أسرى لتقليد قديم، منحيا ومعطيا ظهره لعوامل الجمال والحسن والابداع والإثراء الذي تتفجر به اللغة العربية وتعطي للعمل التاريخي رونقا خاصا وتزيده اعتبارية في القدم.

ولو أننا قسنا على كلام هذا الناقد الفني فكان يمكن لنا أن نهمل المظاهر الدالة على هذا الزمن العتيق من الأبنية والملابس والطرقات ونستبدلها بالتطور في المظاهر الحديثة، لا شك أن هذا سيقابل بالرفض لأنه ينفي عن الحقبة التاريخية طبيعتها القديمة، وأنا أرى كذلك في اللغة حينما تتغير تنفي عن الحقبة التاريخية سمتها وطبيعتها ورونقها وعبقها.

ثم إنني أشعر بتساؤل يقفز به حلقي وهو ان مخرج المسلسل اسمه (بيتر ميمي) أي أنه مسيحي، فهل يمكن أن يكون لذلك أثره في إقصاء اللغة العربية لغة القرآن من المشهد، أم أن هذا التساؤل مجرد ظن بعيد كل البعد عن المشهد والحالة؟!مع أن كثيرا من المسيحيين كانوا يعتزون باللغة العربية ويتذوقون فنونها ويتشربون جمالياتها..

ان عملا تاريخيا يعمد إلى العامية ويلغي العربية فهو كم يقدم شهادة وفاته مسبقا ولا يجد من يكبر حتى عليه.!

التجني الأدبي

عجب عجب.

سحقا لك يا كل أديب تشوه الحقيقة.
سحقا لك يا كل شاعر تقلب الميزان.
سحقا لك يا كل مفكر تزيف البرهان.
سحقا لك يا كل كاتب تقلب الحق باطلا والباطل حقا.
هل تتخيل يوما أن يكون هناك من يدعي أن أبا جهل لعنه الله، بطل شامخ ما خالف محمدا إلا من أجل تراثه وعاداته ووطنه؟!
هل تتخيل يوما أن يكون هناك من يجعل من ابن نوح.. الذي نطقت الآيات البينات بكفره وإعراضه عن الهداية، بطلا يحب وطنه ويفديه ويفضل أن يموت فيه ويرفض النجاة حبا في هذا الوطن.
إنها الفكرة الفاجرة والقصيدة الملعونة التي نطق بها أمل دنقل في قصيدته مقابلة خاصة مع ابن نوح.
يقول أمل:
جاءَ طوفان نوحْ.
ها همُ الجُبناءُ يفرّون نحو السَّفينهْ.
بينما كُنتُ..
كانَ شبابُ المدينةْ
يلجمونَ جوادَ المياه الجَمُوحْ
ينقلونَ المِياهَ على الكَتفين.
ويستبقونَ الزمنْ
يبتنونَ سُدود الحجارةِ

عَلَّهم يُنقذونَ مِهادَ الصِّبا والحضاره
علَّهم يُنقذونَ.. الوطنْ!
.. صاحَ بي سيدُ الفُلكِ قبل حُلولِ
السَّكينهْ:
"انجِ من بلدٍ.. لمْ تعدْ فيهِ روحْ!"
قلتُ:
طوبى لمن طعِموا خُبزه..
في الزمانِ الحسنْ
وأداروا له الظَّهرَ
يوم المِحَن!
ولنا المجدُ نحنُ الذينَ وقَفْنا
(وقد طَمسَ اللهُ أسماءنا!)
نتحدى الدَّمارَ..
ونأوي الى جبلٍ لا يموت
(يسمونَه الشَّعبَ!)
نأبي الفرارَ..
ونأبي النُزوحْ!
كان قلبي الذي نَسجتْه الجروحْ
كان قَلبي الذي لَعنتْه الشُروحْ
يرقدُ الآن فوقَ بقايا المدينه

وردةً من عَطنْ
هادئاً..
بعد أن قالَ "لا" للسفينهْ
.. وأحب الوطن!.

أي منطق أخرق يتقول به شاعر مهووس، لا يأبه لقضية الهداية، ولا يعبأ بدعوة التوحيد، ليكون الوطن فوق الله وفوق الدين وفوق الحق، وما هو الوطن.. ولكنه الكفر البواح والكبر المستطر، والإعراض الشائه الخبيث من قون نوح وولده وزوجه.!

الص*ليبي لويس عوض خرج في صحيفة الأهرام يستهل هذا الهرف المارق بمقدمة يبارك فيها توجهها ويشيد بصاحبها، ويزعم أنها تضيف مفهوما جديدا للوطنية ، ويرى أن في القصة إشارات جديدة تدل عليها يجب أن تتطور على مر الزمان.

وهكذا يكون العبث بوحي السماء من أناس لا خشية لهم من الله، وهم يتجرؤون على هديه بهذه الصورة الجائحة المنكرة، فيتحول الابن الفاجر الكافر إلى بطل مقدام ووطني كبير، ويتحول نوح ومن معه إلى جبناء باعوا الأرض وفرطوا في العرض.

بل تتحول امرأته كذلك إلى سيدة بطلة صامدة قدرت معنى الوطن في الوقت الذي جحده نوح وفرط في بلاده ووطنه. ويقرأ المسلمون مثل هذا الهراء فيصفقون ويبتهجون لإبداع أمل، وبيان أمل، وروعة أمل، وما هو إلا ناطق بلسان الشيطان، أما قضية التوحيد، والدعوة إلى

الإسلام فإنها كانت دعوة مجحفة ضد الوطن وضد من أحبوا الوطن وعشقوا ترابه بصدق ووفاء.

ويالها من محاولة آثمة للعدوان على كلام الله، وطمس معالم الدين، وتمييع صارخ لقضية الإيمان.

ان الأمة التي تنقلب فيها الحقائق وتصمت وتصفق لألسنة الشيطان فيها، لهي أمة هاوية ضائعة تائهة، تستحق أن يعبث الفجرة في عقول أبنائها ليزيدوهم إفكا وإضلالا.

فلتنزل لعنة الرب على كل من يعبث بسلطان القرآن، ولتمطر السماء لهيبا على كل أفاق لا يعظم شعائر الله.

يقولون: إن والده كان عالماً من علماء الأزهر الشريف مما أثّر في شخصية أمل وقصائده بشكل واضح.

ولا أعلم ماذا يكون لو لم يكن والده من علماء الأزهر.. ولا أعلم ماذا يكون الحال لو لم يؤثر فيه؟!

أنا أحب أمل وتطربني أشعاره، لكنني أكره الشطط وأبغض العدوان على الدين، وأجعل من قلمي مقصلة على كل قلم يشاحن هدي السماء.

بحكم كون العلامة محمد رجب البيومي من أرباب البيان واللغة والمتخصص في الأدب والنقد، فقد هيأ له ضلوعه في هذا الميدان وهو يقود جبهة لدفاع عن الإسلام ضد خصومه إلى كشف جوانب خطيرة في هذا السياق ، تعمد إلى الإساءة إلى الإسلام وتشويه رموزه وحقائقه باسم الأدب والإبداع.

وكانت هذه بادرة خطيرة لها أثرها الغائر والعدوان السافر في خداع العقول عن الحقائق والترويج للباطل بكل الوسائل المتاحة، وإذا كان البيومي يدعو إلى احترام الأدب للتاريخ ورموزه والتعامل معهم كما كانوا في واقع حياتهم، وعدم تشويه حقيقتهم وتاريخهم تحت مزاعم الرمزية الأدبية، فقد اكتشف نوعا خطيرا من النمط الأدبي يستخدمه المبشرون وأعداء الإسلام في غمز تاريخه، بعد أن تحرروا بهذه الوجهة الدبية من سياج البحث العلمي والمناهج التاريخية، فلجؤوا إلى الأدب ليمرروا من خلاله أكاذيب كثيرة، حتى لا يمكن الرد عليها أو الوقوف منها موقف المعارض المتهم. فالقصص الفني أقرب الفنون إلى نفس القارئ فهو واضح التعبير، سهل التأثير، شديد الجاذبية، قوي الإيحاء، وأقرب إلى مهج القراء من البحث والكتاب العلمي ، ومن هنا كان النمط الأدبي الذي يحمل الأكاذيب أشد خطورة ، حينما يتدرع بشتى الحوافظ الواقية من السقوط.

فأكثر ما جر إلى النوائب الاجتماعية في هذا العصر، هو ما جاء عبر ما جاء من هذا الفن الخادع من وصف من وصف دقيق لمظاهر الانحلال، وتحليل مغرض للنوازع الهابطة، مع تبرير لها يوشك أن يكون إغراء.

كشف العلامة البيومي عن خطورة الأدب التبشيري وما يحمله من أهداف تعمد إلى تشويه الإسلام وأبطاله الأعلام، فيذيع عنهم التهم والأراجيف والأكاذيب التي نوقشت وتم دحضها من قبل الباحثين المنصفين المخلصين، فأحالوها سرابا خادعا، ولمس البيومي إلى مكمن

الخطورة حينما يذكر القاص أكذوبته وكأنها الحق الصراح، فلا يوجد من يطالبه ببسط الأدلة، أو توثيق الرواية، فليس الفنان باحثا ملتزما بالمنهج العلمي إنما يذكر خاطرة مسمومة في سياق الحوار ، وقد يتعمد الإيجاز في سرده تعمدا كيلا يترك للقارئ مجالا للتفكير إذا أسهب وبرر، فهو يلقي السم في الدسم، ليدعه في خطورته المميتة يسير في الجسم سريان الفناء ليأتي بأفدح العواقب.

كما حذر كذلك من خطورة الفن القصصي وأدب الرحلات وجناية أصحابه على الإسلام، لأنهم يقومون عبر هذه الألوان بنفس عمل المستشرقين في مسيرة التدليس، وطرح تساؤلا مهما عن هؤلاء الذين يسيئون إلى الإسلام عبر الفن القصصي ما يكتبون: هل درسوا الإسلام وأحاطوا بتراثه تاريخا وتشريعا كما درس المستشرقون؟ وأجاب رحمه الله بقوله: ان هؤلاء في هذا الفن لابد أن يقع في أيديهم ما يدلس به من بعض هذه الكتب التي يتأثر بها من عمد أو غير عمد، فأكثر هؤلاء قد جعل زاده الأول كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو كتاب ذو حوادث خيالية، لا تمت إلى الواقع بشيء.

آهٍ من أبناء العلماء

أنا واحد ممن يعشقون العلم وأهله، ويقدرون العلماء الصادقين ويقبلون أياديهم، وتكون أسعد لحظة لي في الدنيا حينما أنظر في وجه

أحدهم وأغترف من نور محياه، فقد قرأت قديما ما قاله أحد الحكماء: وحق العالم آكد من حق الوالد، لأن الوالد يحرص على خيرك في الدنيا، أما العالم فيهديك لخير الآخرة.

وقرأت كذلك قول بعضهم في تفسير قوله تعالى: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِّ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج:٣٢]: أن المراد بالشعائر جمع شعيرة، وهي ما أشعر الله بتعظيمه، والله أشعر بتعظيم العلماء، فيدخلون في الآية، وليس المراد من تعظيم العلماء الغلو والخروج عن المنهج.

وأمام هذا الحب الكبير تعلمت في حياتي درسًا مهمًا لكنه كان قاسيًا مرًا، لا أعلم لماذا تجاهلته عقليتي وأدارت له ظهرها عاطفتي، قبل أن يتبين لي أن الخطأ فيه مني وليس من غيري، فاللوم وحده يقع علي لسوء تقديري.

لقد تعلمت وأنا شديد الحب للعلماء العاملين الربانيين، ألا أربط بين العالم وأولاده، ولا أعتقد أنهم امتداد له، أو صورة مشابهة منه في سموه وأخلاقه فإذا أردت أن تحب عالما ووقعت في غرام علمه وخلقه، واستطاع أن يأثرك بكريم أخلاقه وعبقرية عقله، فإياك إياك بعد موته أن تتلمسه في أبنائه.

فهؤلاء الأبناء في أكثر حالاتهم شيء مختلف عن أبيهم، فبعضهم بعد رحيل والده، يكون أول عمل يفعله وربما قبل دفن أبيه، أن يرمي

بمكتبته في المحارق أو القمامة، فكتب والده شيء بغيض يؤرق عليه جمال البيت وأركانه.

وأنا هنا أحكي تجربة خاصة وجدتها في نفسي، فقد أحببت عالمًا كبيرًا، وشاء القدر أن أقترب من بعض أبنائه وأتواصل معهم، لكنني دهشت حينما رأيت القسوة والأنانية وتقديس المادة وأساليب التجريح التي كانت تتنافى مع والد عُرف بالرقة واللطف والذوق الرفيع.. والحق أنني أمام هذه الصور الشوهاء، وجدت شيئا عجبا تمثل في مشاعر سلبية وضغينة في قلبي على العالم نفسه، ووجدت حبي وتقديري له قد تبدل حجمه وتغير عمقه، وانطفأ نوره وفتر وهجه، وضعف ميله وضمرت رغبته، ولم يعد له في ذاتي وعاطفتي ذلك الوهج الذي كان بسبب ما لقيت من أبنائه وما نالني منهم.

لا شك أنني كنت من المخطئين حينما حمّلت العالم سوء تصرف أبنائه، وأخذه بسلوكهم ونقائصهم، مع أن القرآن يقص علينا ببيان وافر أن هناك فرقا بين نوح عليه السلام وولده الكافر، والقرآن الكريم يردد علينا أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

لكن هذا المعنى أغفلته عن بصيرتي تلك العاطفة التي حينما تجمح فإنها تخاصم الحق والمنطق والصواب، حتى كان هذا الحديث بيني وبين أخي الجليل والصديق المهذب دكتور علي زين العابدين، الذي بصرني بحديث روحي أعاد الحق إلى نصابه فقد قال لي: " اصبر واحتسب فالمحبون دوما ما يقابلون بالإساءة ومن عجيب ما حدث لي ولا أنساه

أبدا فأحد علماء جيزان كان قد منعنا من الدخول عليه أحد أبنائه فكنا نتواعد مع الشيخ بعد خروج ولده ونتحايل، فالباب يكون مغلقا فنقرأ عليه من باب الحوش هو بالداخل ونحن بالخارج.

وأحد أبناء عالم كبير بمكة منعني من الدخول على أبيه لسنوات حتى مات ولم أجتمع به، وفي إحدى العمر بعد وفاة أبيه بسنوات، علمت أنه مريض وأنه أصيب بالشلل فزرته برا بأبيه وتذكرني وتأسف كثيرا فقلت له: لا عليك الأمر سهل وأنت ابن عالم له حقوق علينا.

فأبناء المشايخ ٩٩ منهم هكذا، فنحن مع ذلك نحبهم لمكانة آبائهم، بوركتم سيدي وأعانكم المولى في رسالتكم السامية"

وأمام هذا الحديث الرائع والنصح الراشد الناضج، تبين لي الحق وعادت محبة العالم إلى مكانها في قلبي، وتجاوزت أفعال أبنائه، واستطعت بحمد الله أن أفصل بين الطرفين، ولا أعاقب أحدا بذنب لم يفعله ولا يرضاه، بل تبين لي أكثر وأكثر أن هذا الجور من باب الظلم الذي لا ينبغي أن يكون.

لكنني وجدت في نفسي عزوفا وحذرا من أبناء العلماء، حماية لمحبتي لآبائهم أن يصيبها ضرر.

وفي حديث لي مع أحد الباحثين الكبار، حينما علم بأن عالما من العلماء المشهورين، له تفسير للقرآن الكريم غير معروف، وأنه طبع منه ١٣ مجلدا ثم رحل عن الحياة، فتواصل مع أبنائه، فأخبروه بأن بقية التفسير موجودة، كتبها والدهم بخط يده قبل أن يموت، ولكن صديقي

الباحث، كان في غاية الاستياء من معاملة أبنائه، حيث ضنوا عليه بالمكتوب حتى يطبعه ويظهره للنور، وأذاقوه ألوان العذاب كلما أعطوه ملزمة من الملازم، وحينما يطالبهم بالبقية يتحججون بأنها تحتاج البحث والتنقيب وهم مشغولون، وفي كثير من الأحيان يتهربون منه، ولا يعلمون أنهم يتهربون من بر والدهم والوفاء له، بل يكتمون عن الناس علما ولا يعرفون جرم ذلك.

سمعت أن ولدا لأحد فقهاء الإسلام الكبار وكان يلقب بفقيه العصر خرج على هدي أبيه وكان مسؤولا كبيرا في المنظمات الشيوعية.

وعلمت كذلك أن ولداً لأحد الأدباء الكبار الذين يرجع إليهم الفضل في حماية التراث والدين ، كان شيوعيا منحلا.

فهل بعد هذا العوار يمكن أن نبغض العالم لفساد ولده؟

إنهم يجهلون التاريخ الأدبي

درسنا مادة التاريخ الأدبي أو تاريخ الأدب في المراحل الثانوية الأزهرية، بتوسع محمود، ولقد أدركت أهمية هذه المادة باكرا وكان من فرط حبي لها أن جمعت كتبها الأربع في مجلد واحد، مازال في مكتبتي إلى اليوم بعد هذا العمر الطويل.

لقد استفدت من هذه المادة كثيرا في التاريخ والنقد والتحليل وهو ما دعاني أن أتحث اليوم عن أمر مريب.

منذ أيام تحدثت في مقال تحت عنوان (كلا لم يتب) وكنت أعني به الشاعر المرموق المعروف، الحسن بن هانئ والملقب بأبي نواس، والذي كان مع جودة شعره وبراعة نظمه، آية من آيات المجون إن كان للمجون آيات، ولكن بعض الناس ممن لا دراية لهم بهذه المادة الكبيرة، أخذوا يعترضون علي بأقاويل غريبة ومفاهيم مستعجمة فيقول لي بعضهم:

أمره عند ربه

الله وحده من يحاسبه

مالنا وحاله مع الله..

إلى آخر هذه المقولات المدهشة التي تثير العجب وتجعل المرء يضرب كف الحيرة على كف الفزع.

بل إن بعضهم اتصل بي وحاول أن يفهمني أن ما كتبته أمر تافه فماذا يفيد أن الحسن تاب أم لم يتب، مالنا ولهذا الأمر الذي لا يفيد بشيء.

بل إن ثالثا استنكر علي ردودي على الأصدقاء بأن ذلك المقال يتبع علم التاريخ الأدبي، واعتبرها جملة مستهجنة وجدال مذموم، ومحاولة للهروب من نقد الجمهور، ولما حاولت تفهيمه، ظنني أجدل بباطل وطالبني بالكف.

ومن المحزن أن بين المعترضين كتاب وطلاب أدب، وهو ما دفعني للسؤال بحيرة:

كيف يسلكون تيار الأدب وهم جاهلون بهذه المادة المهمة في صنع الأديب والناقد؟ هذا لا يجوز .

إن مادة التاريخ الأدبي يا صديقي، وحتى تكون منها على علم وفهم، تتناول حال الشعراء والأدباء والخطباء، وتدرس بيئاتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية التي تسهل على الدارس فهم طبيعة شعر كل عصر من هذه العصور، والتي تساعد الناقد أن يعي مقاصد شعرهم، ولا يستغرب منهم بعض المعاني التي قد يستنكرها مع عصر مختلف.

ومادة التاريخ الأدبي حينما تدرس سيرة وحياة الشعراء والكتاب، فإنها لا تدرس سيرهم فتروي ما طاب من نوادرهم ومآثرهم ونتف أخبارهم فقط، بل إنها كما يقول الباحثون: " تغمر الدارس لها بعلم منظم فيكون ملما بمدى ثقافة هؤلاء الأدباء والشعراء، وتطور حياتهم، وما تأتى لهم من اختبارات واتصالات وأذواق ومشاعر، وما تهيأ لهم من أمزجة ورثوها أو اكتسبوها"

ولقد ضرب لنا مثل بالمجتمع الجاهلي الذي نشأ أدبه في صحراء وحياة بدوية، ولولا علمنا بأن الحياة في الصحراء حينما يقبل عليها الربيع، فتكتسي الأرض خضرة ترعاها الماشية فتدر ألبانها وتسمن لحومها، ولولا علمنا كذلك بأن المجتمع البدوي تتعارك فيه القبائل ويكثر بينها الغزو والإغارة فيعز المن والاستقرار، لما استطعنا أن ندرك ما قاله النابغة في الثناء على الملك النعمان حينما مدحه قائلا:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ** ربيع الناس والبلد الحرام

لقد أنزل النعمان الممدوح منزلة الربيع، لأنه في الربيع كل الخير للناس، وأنزله كذلك منزلة البلد الحرام لأن فيه الأمن من السلب والنهب وسفك الدماء.

وهكذا أثمرت دراسة البيئة والتاريخ والمجتمع وطبيعة العصر فهما دقيقا لقول الشاعر، تستطيع معه أن تفهم بدقة تشبيهاته واستعاراته وألفاظه ومراميه.

الدعارة الأدبية

بعض الأدباء الشبان اليوم، يتخيلون أن اللحظة التي ينطلقون فيها إلى حافة العبقرية، هي لحظات التمرد، وأن الأديب الحق في نظرهم، هو ذلك الأديب المتمرد.. المتمرد على كل شئ، على المألوف والمقنن والمعتاد والمتوارث والقيم والفضيلة، بل حتى التمرد على كينونة الدين والأخلاق.

لقد كان حزني مضاعفا حينما رأيت وسمعت بعض شبان الأدب وطلابه، وهم يتحدثون عن روعة الأديب الفلاني والأديبة الفلانية، التي أبدع أو أبدعت، في تصوير مشهد جنسي داعر، وأحاسيس جنسية منحطة، تكفلت بصنع خيال ساخن في أذهان القراء.

كان هذا الصنيع في أذهانهم غاية النجاح، وروعة الموهبة المتألقة.

والحق أن رسالة الأدب هي رسالة الأخلاق، وأن الرباط بين الأدب والأخلاق رباط متين، فالأدب وسيلة من وسائل توطيد معالم الأخلاق في الحياة والمجتمعات، ومن عجب أننا ندعوا لصيانة الأخلاق، ثم يخرج منا من يدافع عن دعارة الأديب، بحجة أن له مطلق الحرية الكاملة، في أن يقول ما يشاء ويصور ما يريد.

إن الأدب والأخلاق وحدة واحدة، لا يمكن الفصل بينهما أبدا، تحت أي دعوى أو أي مسمى خادع براق.

وعندي أن هذا الأديب الذي ينال مكانة مرموقة في الساحة الأدبية بفضل كتاباته الجنسية الداعرة، هو أديب كسب مكانته بالحرام، وعلى حساب الأخلاق، بل كانت هناك من حالته كارثة أعظم وأخطر، وهي الدلالة الواضحة الفاضحة على ضحالة الأخلاق التي مني بها هذا الجيل الذي أخذ يصفق له، وسقوطه بقوة في المعترك الأخلاقي، وانحرافه بالأدب عن مساره القويم.

ولنا أن نتساءل: ما الذي نستفيده أدبيا ونفسيا وخلقيا وعلميا واجتماعيا، من وصف مفاتن امراة، وتصوير علاقة حميمية، أو تأجيج الشهوة عبر قبلة ساخنة بين عشيق وعشيقته؟ اللهم إلا إثارة الغرائز، وتهييج الأحاسيس الجنسية، التي يسيل لها لعاب المنفلتين قيميا وأخلاقيا.

هل تتخيل يوما أنني رأيت كلاما لكاتبة من الكاتبات وهي تصف رواية أديب مشهور، وتصف ما سطره في روايته من مشاهد الجنس، فتقول: واااو.. فظيع ملوش حل؟

الله يحل وسطك يابعيدة يا مخلولة.

بل يعد بعض الأدباء اليوم وتسبقهم في ذلك الأديبات، أن مشاهد الجنس ضرورة في روايتهم، ولازمة أدبية لابد من خوضها، وأن براعتها الحقيقية وموهبتها القريدة ستتألق في وصفها لهذا المشهد، وأن حكم القراء على مدى جدارتها الأدبية مرهون بهذه السخونة التي إن حققتها في خيال القارئ، فسوق تحقق النجاح المنشود.

ولعلي سقت الأديبة قبل الأديب، لأن ذلك يرجع إلى فكرة التمرد الضالة، التي علموها لهذا الجيل، وإذا جاءت هذه النقيصة من امرأة، فإن فكرة التمرد، تكون قد حققت بعدها المثالي، حينما تخرج من امرأة يفترض أن تكون أكثر حياء وأدبا وعفة.

وهكذا تسقط حسابات الأخلاق تحت دعاوى الابداع والتوهج الأدبي.

هل تعلم أيها الأديب الداعر، أن روايتك لو راجت في سوق الأدب وكسبت منها وتربحت من توزيعها، فإن كل مال يأتي منها هو مال حرام؟

نعم والله حرام.. حتى لو سألت شيوخ الدين لأجابوك بذلك.

الرافعي أديب الوطنية الصادق

حدثت يومًا أستاذي فضيلة الدكتور النبوي شعلان وهو المعروف بالهوى الرافعي، وقلت له: رأيت كثيرًا من الأدباء قد جُسدت شخصياتهم في مسلسلات درامية تليفزيونية، رأينا مسلسلا عن طه حسين والعقاد ويوسف السباعي وأمير الشعراء أحمد شوقي ونزار قباني وغيرهم كثير، ولم أر يومًا مسلسلاً مستقلاً لشخصية الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وهو من أعظم قامات الأدب المصرية، وأعلم الأدباء باللغة، والمفكر الجسور، الذي سما في دنيا الأدب سموًا لا يدانيه فيه كثير من أترابه، كان له سمته الخاص وذائقته المميزة وأسلوبه المتفرد، الذي شهد به القاصي والداني، والخصم قبل الصديق.

كان الرافعي رحمه الله من أشد فرسان المعارك الأدبية التي شكلت مسار الثقافة المصرية، وطورتها وأزكتها وبلغت بها ذراها، وطُبعت في ذاكرة الوطن، وجعلت له الريادة المعرفية.. كان الرافعي مُلهم الوطنية ورمزًا من رموزها فهو صاحب ومؤلف النشيد الوطني لمصر والذي سبق النشيد الحالي (بلادي بلادي) وكانت كلماته الخالدة يُرددها شعب مصر صباح مساء بكل طوائفه وشرائحه، في المناسبات والأعياد، والملاحم والخطوب.

ألَّف الرافعي نشيده الوطني بكلماته العذبة التي قال فيها:

اسلمي يا مصر إنني الفدا * ذي يدى إن مدت الدنيا يدا

أبداً لن تستكيني أبداً * إنني أرجو مع اليوم غداً

ومعي قلبي وعزمي للجهاد * ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة * وسلاماً يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه * أتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين.

كلمات الرافعي وأنت تقرأها تجزم بعقلك وقلبك وروحك أنها كلمات لم ينطق بها مجرد شاعر يَنظم أبياتا، وإنما رجل أحب مصر، وملك حبها شغاف قلبه، وتربع على وريده، وألهب مشاعره.

حياة الإمام الرافعي لم تكن حياة فاترة أو هادئة مسالمة، وإنما كان الرجل فارسًا بقلمه يخوض الملاحم الفكرية والأدبية مدافعًا عن هوية بلاده وحضارة أمته وتراثها الثمين.. ورغم الخصومة الشرسة مع أترابه من عمالقة الأدب، فإنهم كانوا يدركون عظمة موهبته ويحسبون لها ألف حساب، بل شهدوا لها كأعجوبة من أعاجيب البيان.

لم يكن الرافعي من المتزلفين بأقلامهم وبيانهم لأصحاب الحظوة والمناصب، ولم يُسخره للمديح والإطراء، وإنما كان ذو مواقف أبية شجاعة، تعكس اعتزازه بنفسه، واحترامه لكلمته وتقديره لقلمه.

عاش الرافعي إنسانًا ككل البشر، يُسَر ويغضب، ويسعد ويحزن، ويكره ويعشق، لكن عشق الرافعي جعل قلمه يخط لنا أسفارًا تحمل رسائله التي لم يكن لها مثيل في عالم الحب العذري، وظلت إلى اليوم قِبلة العشاق، تعبر عن مكنون شعورهم، وتترجم ما يريدون نطقه من أحاسيس، كتبها الرافعي بقلم العاشق ومداد المستحيل، حتى أنك مع

كثير من عباراته تتعجب وتقول: كيف استطاع أن يصيغ مثل هذه المعاني بمثل هذا الأسلوب؟

لم يكن أدب الرافعي بمعزل عن الدنيا والناس، ولم يكن نبتًا أثمر في قبو المكتبات، وإنما كان مرآة صادقة لواقع الحياة وآلام الجماهير، إذ كان يمشي في الشارع ويعيش بين البشر، وكلما وجد ما خطف مشاعره وحرك أحاسيسه هرع إلى قلمه يسجل ما يعبر عن العاجزين، وينطق بآلام المكلومين، فأين نحن من مقاله: "عروس تُزف إلى القبر"؟ وأين نحن من كتابه "المساكين" الذي جاء تعبيرًا عن حال كثير من التعساء؟ ولله در صديقه العريان حينما وصفه بقوله: "كان يحمل هم الشعب في قلبه الكبير"

ترك الرافعي إرثا عظيماً لا يمكن تجاهله لعشاق الأدب العربي، وحفر اسمه في ذاكرة مصر كرمز من رموزها العظيمة، واليوم نحتاج إلى إحياء سيرته، لتعرفه الأجيال، ونبعث في وجدانهم أدبه، ونلفتهم إلى قمته الشاهقة، ووطنيته الصادقة.

ويبقى السؤال: هل يمكن أن نرى قريبًا مسلسلا دراميًا عن الأستاذ الرافعي؟

العنوان أكبر خدعة

من سمات الأمم الجاهلة التي تخاصم القراءة والثقافة، أنها تنخدع دوما بالعناوين البراقة التي تحملها كتبا تافهة هابطة ساقطة الأفكار مهترئة الغايات.

فما أن تطوف برأس أحدهم فكرة هابطة بائخة عبثية بلهاء تخالف المألوف لا قيمة ولا سناد لها من العلم الصحيح والمنطق السليم، حتى يحك رأسه حائرا مضطربا متفكرا: كيف لي أن أجعل منها كتابا تضج به الدنيا، وتتحدث به الركبان، ويقيم زلزالا ويصير شغل الشاغلين.؟

وهنا يستدعي الشيطان ليقدم إليه فكرته الماردة ويساعده وصعها، فإذا به يقول: إنه العنوان ولا شيء غير العنوان.

نعم أعلم أن كتابي تافها مملا سقيما لا وزن له، ولكنني يمكن أن أجعل منه الكتاب الأول على الساحة الفكرية، وتلوكه ألسنة الناس في كل مكان، إذا ألهمني الشيطان فكرة عنوان مثير خاطف قابض صادم غريب محير.

إنهم يشابهون تماما بعض بائعي الفاكهة ممن لا ضمير لهم، حينما يصدرون إليك الناضج منها على وجه القفص، فيسرك مشهدها ويعجبك نضارتها، ولا تعلم أن أسفلها يعج بالفاسد المغشوش.

وهذا هو بالضبط ما لعبت عليه مؤخرًا صاحبة كتاب كاملات عقل ودين، فما أن تقرأ الكتاب حتى تجد كل فصوله قص ولصق ونقل من كتب العلماء وأقوال المستشرقين وترديد لطعونهم المعروفة المشهورة،

ومحاولات خاطئة لتفسيرات شاذة تروج لها الكاتبة وتعيدها من جديد وتخاطب بها الجمهور كأنها مسلمات وثوابت تبني عليها أوهامها.

وإذا نظرت للكتاب الطويل العريض رأيت أن فكرة الكاتبة كان يمكن أن تلخصها وتشرحها في مقالة مكونة من ألف كلمة، ولكن خيالها المريض أوحى إليها أن تكون صاحبة كتاب فكري، وتوهمت أنها تستعيد سيرة كتابي الشعر الجاهلي والاسلام وأصول الحكم، أو كتاب من هنا نبدأ.

ومثله مؤخرا ما حدث من رجل مضطرب الفكر، صحا من نومه فوجد نفسه لا شيء، وأحب أن يكون شيئا، فماذا يفعل؟

ضرب الهوى خياله المريض وقال في نفسه: لماذا لا أخط كتابا أعارض فيه العملاق عباس العقاد وأنقده نقدا عنيفا وأحوله إلى شيطان مريد، وأن أضع عنوانا يجمع بين الهدوء والإثارة في آن واحد، حتى يكون سبيلا لخداع القراء وإقناعهم، والايحاء لهم بأنني مفكر سديد النظر والفهم، والرأي عندي أن أسمي هذا الكتاب (مناقشات هادئة لإسلاميات عباس العقاد)

و إفكا وزورا ما صنع وما أوعز إليه به خياله الهاوي، فقد أراد صاحب هذه العقلية المتوهمة أن يصور عملاق الأدب العربي والفكر الإسلامي، كأكبر شيطان عرفته الدنيا، بل صور لنا الرجل الذي وصفه الشيخ الغزالي بأنه أكبر مدافع عن الإسلام في القرن العشرين بأنه أكبر

عدو للإسلام منذ قيام الدعوة المحمدية، بل وأخطر عداوة من أبي جهل.

لقد ظننا أن لكتاب الرجل قيمة فإذا به وقد كان الأجدر أن يسمى مناقشات عبيطة لإسلاميات العقاد، وأكثر ما يروعك منه الاجتزاء الجائر لكلمات العقاد وإقامة التهم عليها، مما جعلها كما قلت من قبل فضيحة فكرية ما كان لها أبدا أن يضمها كتاب مسطور.

وللأسف خدع العنوان كثيرين، واقتنع بخرافات الكتاب طائفة ممن يلتفون حول الرجل يريدون أن يجعلوا منه امتدادا للأستاذ أنور الجندي ولكن هيهات هيهات، فلر يمكن للثرى أن يبلغ الثريا.

وأحيانا أخرى قد تبحث أحيانا عن عنوان لموضوع معين، وتظن أن هذا العنوان سيهديك لما تشتاق إلى القراءة عنه، فإذا به بعدما يستقر لديك، تقسم أنه من الحرام أن توصم تلك الصفحات بهذا العنوان.

فقد بدا لي يوما مضى أن أبحث عن كتاب يتناول حياة شيخ العروبة محمود شاكر وأخذت أبحث هنا وهناك علني أجد غايتي ومأربي حتى علمت أن هناك كتابا تحت عنوان (محمود محمد شاكر حياه قلم) للأستاذة عايده الشريف وتخيلت أن هذا الكتاب سيكون مثل كتب التراجم الشيقة التي أعتدت عليها وإنني سأجد فيه ضالتي التي تتحدث عن أسرار وعلامات ومبهرات وملامح هذه الشخصية الكبيرة، وأعياني الحصول على الكتاب، ولكني ظللت أجد في البحث حتى استطعت العثور عليه وما إن قلبت صفحاته فإذا بها ورقات تائهه

زائغة لا تعرف أولها من آخرها، ولا تعرف ما تريده صاحبتها من الحديث الذي لم يعبر عن الشيخ محمود شاكر بالشكل الذي كنت أرجوه، ولم يقدم من تصويره شيئا مما كنت أحلم به، ومن يومها أدركت أن العنوان يمكن أن يكون سبيلا أكيدا لخداعك والضحك عليك وإغراقك في وهم كبير.

اللحية شعار المحمديين

من عجائب الأقدار أنه في الوقت الذي طالعتنا فيه الممثلة رجاء حسين بمثل هذا القول الغائر في دنيا الجهالة والتبجح الوقح، في حديثها عن اللحية التي هي سنة دينية وواحبة على المذاهب الأربعة.

وجدت نفسي خلف هذا القدر الذي يضعني وأنا أقرأ مذكرات الأديب الكبير (إبراهيم عبد القادر المازني) أمام أكثر من حكاية وخبر عن اللحية.

أحببت الآن أن أذكرها لكم، فالمازني وهو من هو، أنزل اللحية وأصحابها منزلها الكريم، فله الرحمة وعليه الرضوان.

فالمازني وهو الأديب الكبير، يعلن في مذكرات أنه يحب أصحاب اللحى ولا يجد غضاضة في هذا فهي زينة الوجة وسمت الرجال فيقول:

لا أعرف ما سر حبي للحى في وجوه الناس.

ولكني أعرف أنى مارأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخلاة، إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من أصابعي مشطا. وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبث بها، فان الناس في زماننا يحلقونها أو يقصونها، ولا يرسلونها، اكتفاء بالمظهر واستغناء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة.

ثم يروى لنا المازني قصة طريفة لصديق له من أصحاب العمائم حينما أصيب في لحيته بطريقة غريبة.

يقول المازني:

"ولن تجد أحداً في هذا الزمن يغضب إذا أحفى الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منقوشة ذهب بها إلى برلين لبشترك في تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك. وقد احتفظ بجبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة وأخطر الفوضويين. قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يفرغ من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح وزعيق لا يكونان في برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألفى الشيخ واقفاً وسط الدكان والفوطة على صدره، وهو يرسل الصوت مجلجلا بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهوت، فسأله صاحبه عن الخبر فقال: خبر ، أنظر .. ، وأشار إلى خده الأيمن، فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللقاء قد ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغابة على خده الأيسر هائجة كما كانت، فلم يسعه إلا

أن ضحك ، ثم عاله حتى رده إلى الهدوء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق ..)

قال الشيخ . (أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألني ماذا أبغى، ولم أدر كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بيديي أ أن سوها ـ هه ـ أي بعض الشيء قليلا جدا ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها).

وسأل الحلاق كيف حدث هذا الغلط فقال: أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجر عليها ولم يجاوزها ما طلب.

يقول المازني بما يشير إلى غرامه باللحية مرة أخرى ويستدعي ذكريات جده حينما كان يعبث بلحيته:

كلا : لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنظر لحية حقيقية، أو تتاح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك في حداثتي بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبى لحية جدى . أفتل شعراتها أو أثنيها. وأدسها في أذنه فينتفض ويصبح بي وطردني، فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك، فلما مات جدى شعرت بأن خسارتي جسيمة، وأنى فقدت مالا أرى عنه عوضا، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء أخو جدتى ليعزينا

، فأمسكناه وكنت أنا أشدهم الحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قصيراً، فلحيته تبد أطول مما هي في الحقيقة فتسليت بها أسابيع!

وفي موطن آخر يذكر المازني كيف يرسم الكتاب والمثقفون صورة للكاتب في خيالهم، وقد تكون في الغالب على غير الحقيقة، فإذا ما عرفوه في الواقع أصابهم صدمة وغرابة

يقول المازني:

"وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جما له طول وعرض، أو قولهم: لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة، أو قولهم: أأنت المازني أم اختزاله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبني في اذهان الناس كما يشاءون، ان يتخيلونى وان اظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو – أو لايرضون فقد استوى هذا وذاك عندي – ؟؟؟ »

لقد ذكر المازني اللحية كأحد معالم السمات التي يظنونها عنه وفيه، ولم يدع أو يشيع من مقالات السوء في هذه السنة النبوية ويصرفها بما وصفت به الممثلة أصحاب اللحى.

تعسا لها وقبحا

إن مجرد وصم اللحية بمشاعر الكره، جريمة وجرأة على مقام النبوة، ترجع إلى الجهل تارة وإلى الفجور تارة أخرى.. ثم ألم تسأل المرأة نفسها، كيف تقول مثل هذا الكلام وهي تعلم أن اللحية سمت النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام؟!

كانت هناك محاولات قديمة لوسم أي متدين مطلق للحيته بأنه إرهابي.
وصارت اللحية بفعل الإعلام رمزا للإرهاب، حتى جاء حزب النور وكانت له الحسنة الوحيدة في حياته، أن جعل بعض الناس تتقبل صورة المتدين الملتحي خارجا عن نطاق الإرهاب، بل على العكس تماما والنقيض.
الكاتب الصحفي الألمعي صلاح منتصر كان على قدر احترامنا لتاريخه الفكري والمهني، إلا أنه كان غاية التبذل والرخص، حينما انتقد لحية اللاعب محمد صلاح وصوره فيها بأنه يشبه الإرهابيين، ولكن حسبك يا منتصر فهو يشبه المحمديين، لا الإرهابيين.
إننا أسارى ثقافة التنكر للحى وأصحابه، واستطاع الإعلان أن يؤصل فينا الفزع من أصحابها، والضريبة من هيأتهم.

الكتاب المجهول

لأول مرة أكتشف كتابا جديدا للناقد والمفكر المحسوب على اليسار رجاء النقاش.
وأنا حقيقة أحب أسلوب رجاء وحرصت على قرأة كل كتبه، وكنت أبحث في جوجل دائما عن كل عناوينه حتى يتيسر لي مطالعتها إلكترونيا.

ماحدث اليوم كان مدهشا حينما كنت أطالع بعض صفحات الكتبيين، لأجد من بينها كتابا تحت عنوان الشيخ المراغي حياته وأفكاره لرجاء النقاش.

الكتاب كله دفاع عن الشيخ المراغي ورد على الشبهات والأكاذيب التي طالت علما من أعاظم علماء الإسلام والأزهر الشريف، وإثبات أنه رجل وطني مجاهد وإمام ذو عزيمة وهمة ومضاء.

المدهش في الكتاب أن يقوم بهذه المهمة -مهمة الدفاع عن شيخ من شيوخ الأزهر المعتبرين- كاتب من كبار كتاب اليسار، الذين يتخذون موقفا سلبيا من الدين ورجاله، لكننا رأينا هنا رجلا يدافع عن الحق والحقيقة، ويغترف من المنطق والعقل والتاريخ ما يبرئ به الشيخ من كل إساءة زائفة حاول بعضهم أن يمسه بها.

إنني منذ عرفت الكتاب وأنا أتساءل: لماذا يتخفى هذا الكتاب كأحد كتب رجاء النقاش؟

ولماذا لا يقوم الأزهر بطبع الكتاب والترويج له، لأنه يدافع عن علم من أعلامه الكبار؟

"بدأت قصة الكتاب مع مقال كتبه رجاء النقاش في مجلة المصور عام ١٩٩٥ عن دعوة المؤسسات الدينية والثقافية للاحتفال بالذكرى الخمسين للمراغي، وبعد نشر المقال تلقى النقاش بعض الرسائل التي تهاجم المراغي وتدعو الكاتب إلى قراءة بعض المراجع السياسية والتاريخية.

ومن هذه الرسائل رسالة آثر صاحبها أن يكون توقيعه هو: "قارئ وطني مثقف" يعترض صاحب هذه الرسالة على دعوة النقاش للاهتمام بذكرى المراغي، ويرى أن الشيخ المراغي لا يستحق هذا الاهتمام ويلخص اتهاماته للمراغي في ثلاثة أمور:

- أن المراغي كان رجلاً معتدلاً في عصر كانت مصر فيه بحاجة إلى الثوار الأحرار.
- أن المراغي كان صديقاً للملك فؤاد وابنه الملك فاروق رغم ما هو معروف عن الملك الصغير من فساد وانحراف.
- أن المراغي كان صديقاً للإنجليز في وقت كان الإنجليز فيه يحتلون مصر.

وقد حركت تلك الرسالة الفضول العلمي لدى رجاء النقاش للحصول على مزيد من المعلومات عن الشيخ المراغي ودوره في تاريخ مصر المعاصر، وزاد من اهتمامه بهذا الموضوع أن أساتذة كبار مثل محمد عودة، ود. حسين مؤنس قد رددوا بعض هذه الاتهامات في كتاباتهم المهمة عن تاريخ ما قبل ثورة يوليو، وتوصل النقاش بعد جهد كبير إلى رأي يخالف رأي القارئ الوطني المثقف، ورأي هؤلاء الأساتذة؛ لذا كانت المناقشة العلمية الرصينة لهذه الآراء هي أحد المحاور الكبرى لهذا الكتاب. "

رد النقاش على كل هذه التهم ردودا قويمة عاقلة قائبة مفصلة لا تدع مجالا لقبولها مرة أخرى، ولكننا هنا نخص بالذكر تلك التهمة البلهاء

التي يلصقها كثيرون بأعلام هذه المرحلة، وهي صداقة الإنجليز، فقد ألصقوها من قبل بالإمام محمد عبده، خاصة من التيرات الحرفية الغبية التي لا تعي شيئا من طبيعة هذه العلاقة والغرض منها.

وفي عرضه للكتاب يذكر فريد لطفي أن النقاش ذكر أن المراغي كان صديقاً للإنجليز، في وقت كانوا فيه يحتلون بلادنا، ويناقش هذه الفكرة فيسلم بداية أنَّ المراغي كان على علاقة بالإنجليز كأفراد، وليس بالإنجليز كسياسة أو أفكار استعمارية ضد مصر والسودان وغيرهما من الدول والشعوب، كان المراغي على صلة مع الإنجليز بحكم عمله في السودان لمدة تزيد على عشر سنوات، وكان يحاول ـــ وهذا حقه بل واجبه ـــ أن يتعلم منهم أساليب الإدارة الحديثة، وكل الفضائل الأخرى التي ساعدتهم على السيطرة والتفوق، والقدرة على تنفيذ أهدافهم بإتقان شديد، وهذا هو نفس ما فعله الزعيم الهندي نهرو وزملاؤه، فقد تعلموا على أيدي الإنجليز وحققوا استقلال الهند بقوة ما تعلموه، بعد أن استخدموا هذا العلم لصالح بلادهم.

على أن المراغي لم يكن في يوم من الأيام "أُلعوبة" في يد الإنجليز، بل كان يعارضهم أشد المعارضة كلما سنحت له الفرصة، فعندما اندلعت ثورة ١٩١٩ وكان قاضياً للقضاة في السودان أعلن تأييده للثورة، وأصدر نداء علنياً للعاملين في السودان يدعوهم إلى التبرع لثوار مصر وشهدائها، ولم يكد يمضي شهر على جمع المراغي لتلك التبرعات حتى خرج من السودان مُستقيلاً تحت ضغط الحاكم العسكري السوداني

الذي أرسل للمراغي نائبه ليقول له: "إن عملك في جمع التبرعات هو إعلان للثورة في السودان.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية قال المراغي في خطبة له حضرها فاروق ورئيس وزرائه حسين سري: "إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل"، وكان ذلك بعد غارة انتهت بمقتل وجرح عدد كبير من المصريين وقد حاول حسين سري أن يُرغم المراغي على إصدار تصريح آخر ينفي فيه هذا القول أو يخففه لكن المراغي رفض وهدد بالاستقالة."

ومما ذكر في أمر هذه الحادثة أن المراغي رد بعنف على تهديد سري باشا فقال له: من أنت؟ أنا أستطيع أن أقيلك من منصبك بخطبة واحدة من فوق منبر الجامع الأزهر أو منبر الحسين.

"وعلقت صحيفة التايمز البريطانية وقالت: "إن هذا الرجل ـ أي المراغي ـ أخطر على بلادنا وحياتنا من كل ويلات الحرب."

ولو كان الإنجليز يستطيعون الإطاحة بالمراغي لفعلوا، ولكنه كان قد وصل بعلمه وذكائه وقوة شخصيته وحماسته النبيلة للإصلاح في الدين والمجتمع إلى مكانة يصعب معها على الإنجليز أن ينالوا منه؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لقامت ضدهم ثورة عنيفة لم يكونوا قادرين على إخمادها.

هذا الكتاب يظل مجهولا إلى هذه اللحظة ولا يروج له من ينشرون كتب النقاش، لأنه يصادم منهجيتهم التي تريد تشويه صورة الإسلام ورجاله، ولكن الكتاب يعد حسنة عظيمة وشهادة بالحق تبيض صفحة

كاتب يساري وتجعله من المنصفين.. وأتمنى لو وجد الكتاب عند صديق من أصدقائنا أن يعمد إلى نشره إلكترونيا.

جلافة العباقرة

شيء مر أن تحترم احدهم وتعتبره رمزا فريدا، ثم يشاء القدر ان تلتقيه، فتبصق على اليوم الذي لقيته فيه.. من شدة صدمتك في أخلاقه التي كانت بمثابة لطمة على قفاك أيقظتك من وهم كبير.

يقول الدكتور سعيد اسماعيل: "عملاقا فكر، ندمت أن قابلتهما؟! فى أول الستينياتِ، كنت فى زيارة لمعيد زميلنا فى فلسفة آداب عين شمس، هو الراحل "محمود رجب"، حيث كانت زوجتى تدرس بقسم علم النفس.. كان رئيس قسم الفلسفة هو الدكتور عبد الرحمن بدوى، الذى لا أجد حاجة فى الإشارة إلى عبقريته وتفرده بين معظم، إن لم يكن، كل من علّموا الفلسفة واشتغلوا بها فى الوطن العربى.. وقلت لنفسى: لابد أن أنتهز الفرصة لمقابلته، فطلبت من محمود رجب أن يقدمنى إليه، وفوجئت بمحمود ينصحنى ألا أفعل ذلك، وتصورت أنه يمزح، فألححت.. أخذني محمود إلى مكتب الدكتور بدوى، وقدمنى إليه، فإذا بمفكرنا الكبير، يمد يده بتراخ واستعلاء واضحين، دون أن ينظر إلىّ، أو يظهر ترحيبا، أو دعوة إلى جلوس، فضلا عن عبوس واضح.. ولعنت تلك اللحظة..

وعندما ظهر لى مع الدكتور سعد مرسى أول كتاب عن تاريخ التربية والتعليم فى مصر سنة ١٩٧١، عن عالم الكتب، ورحت آخذ بعض النسخ، فوجئت بوجود العبقرى الدكتور جمال حمدان، حيث كان عالم الكتب هو ناشر موسوعته (شخصية مصر)، فسارعت إلى إهدائه نسخة من كتابنا، فإذا به يعتذر، ولا يقبل الهدية، مبررًا ذلك بأن قبوله لها يعنى أن يهدينى هو كذلك كتابا له، وبذلك تنشأ علاقة بيننا، وهو لا يريد علاقة مع أحد؟!! وندمت أن رأيته، وندمت أن حاولت إهداءه كتابنا.. ولله فى خلقه شجون؟!"

هذا تماما ما أحاول التعبير عنه والتنويه به، وقد رصدته في مواقف كثيرة ضايقتني ولم تعجبني من أخلاق بعض من يظنون أنفسهم كبارا.. والتي كلما حاولت التنفيس عنها والتعبير عن أسفي في شخوصهم، وجدت من يلومني ويؤكد أن العلة في أنا وليست فيمن أشكو ردة فعلهم.

الحمد لله أن مفكرا جليل القدر مثل الدكتور سعيد إسماعيل وجد ما وجدنا وعانى مما نعاني به، مع الفارق الكبير ممن نشكو منهم وبين من شكا منهم الدكتور سعيد، الذي لقي عباقرة. تشهد الدنيا كلها بفخامة عقولهم، أما من قابلوني فهم بغاث لا قيمة لهم أمام هؤلاء النجوم

شاعر أزهري معروف عاملني بوقاحة وكان فجًا في كبره وتعاليه، وأخر كان من عمداء الأزهر يتفجر كبرًا ويطفح غرورا، وهم في الحقيقة أصفار على الشمال، ويعلم الجميع أن ترقيهم للمناصب الوظيفية التي

جعلت لاسمهم بصيصا من الرنين المؤقت، كان لمؤهلات أخرى غير العلم، لأن العالم الحقيقي لا يمكن أن يكون متكبرًا متغطرسا سفيهًا إلى هذا الحد.

كنت وزملائي أيام الدراسة في كلية أصول الدين ندخل على العلامة الجليل محمود عمارة، وهو من هو حيث يشار إليه بالبنان ويملأ الدنيا علما ودعوة، كان الرجل المبارك إذا دخلنا عليه ونحن طلبة صغارا، وهو شيخ الكلية الأكبر، يقوم منتفضا لمصافحتنا، كنا نشعر بحرج بالغ أن يقف إلينا نحن الصبية، رجل مرموق نسمع صوته ونشاهد أحاديثه في الإذاعة والتلفزيون.

ويذكر احد اصدقاؤنا عن الدكتور العلامة إبراهيم الخولي -رحمه الله- فيقول: قابلته أيام دراستي في كلية اللغة العربية فسلمت عليه، فوقف وابتسم وهش وبش وسألني عن اسمي وكليتي وفي أي عام أدرس، وكذا فعل مع كل من ذهب لمصافحته -رحمه الله وعفا عنه-.

وهكذا أخلاق العلماء الربانيين الذين تربوا في بيوت اصيلة صهرت معادنهم على أنفس الأخلاق والفضائل.

أما أصحاب النقص والعقد فبيوتهم لا شرف فيها يرفعهم، وهم وتصرفاهم أكبر عنوان على وضاعتها.

هل كانت بنت الشاطئ تغار؟

أحيانا أسائل نفسي: كيف تركت الدكتورة بنت الشاطئ تفسير الشعراوي يمر ويصدر في زمانتا دون نقد ولسع وغمط؟

كيف أفلت الشيخ الشعراوي وتفسيره من غيرة بنت الشاطئ التي كانت ترى نفسها عمدة التفاسير، وحكر المفسرين ومرجع التفسير.؟

والسيدة ابتداء حتى لا يظن أهوج الفهم مخلول الوعي انني أهاجمها او أنتقص من قدرها... ولكنه مجرد حديث عن الغيرة التي ثبتت للعلماء، فمما قيل: يغار العلماء من بعضهم كغيرة التيوس في حظائرها..

لقد "دافعت عن العروبة والإسلام وخاضت بقوّة سجالات فكريّة ذوداً عن اللّغة العربية والبيان القرآني، ودعمت تعليم المرأة بعيداً عن شعارات النّسوية الغربية، كما وقفت بوجه ثنائيّة التّعليم والمناهج التغريبية، واعتبرتها جرثومة تنخر في المجتمع العربي والمسلم. وانتقدت الأفكار ذات العلاقة بالصهيونية العالمية، وتجلّى ذلك من موقفها الشّهير من البهائيّة، فكانت من أبرع نماذج من أعلام النساء في الإسلام التي ننظر إليها ونبحر في علومها."

ومع هذا يتذكر الجميع ولا ينسى أبدا تلك المعركة التي قامت بين الدكتورة بينت الشاطئ والدكتور مصطفى محمود حول كتابه (القرآن الكريم محاولة لفهم عصري) وطبعا كانت المعركة من طرف واحد، ففي الوقت التي صبت بنت الشاطئ غضبها على الدكتور مصطفى

محمود، كان الآخر غارقا في الدهشة والعجب من تصرفها، فماذا حدث؟

قال الدكتور مصطفى في مذكراته أنني حينما شرعت في تأليف كتابي لم أشرع في طباعته قبل أن أعطيها نسخة منه، لتطلع عليه وتقول رأيها فيه، لأني كنت أقدر وأعتز بآرائها في قضايا الدين، فقد كانت عالمة في مجالها بمعنى الكلمة، وفوجئت في أحد الأيام باتصال تليفوني منها تطلب مني زيارتها في منزلها، فذهبت على الفور، وبمجرد أن رأتني حتى قالت: إيه الأسلوب الرائع ده، اجتهاد رائع وعمل تحسد عليه، وسيلاق إعجاب الجميع، وقالت: هل اخترت للكتاب عنوان ولا لسه؟ فقلت لها: هيكون شرف لي لو اقترحت علي اسم، فقالت : اسمع سمه التفسير العصري للقرآن، وبالطبع الاسم عجبني جدا، وعلى الفور أطلقته على كتابي، ولكني تأثرت جدا فلماذا فعلت كل هذا الهجوم مع أنها من سمت الكتاب؟ ويعد هذا دليلا على أنها اقتنعت بمضمونه، وأحزنني كثيرا هجومها علي وعلى الكتاب في جريدة الأهرام، واتهمتني بأنني نموذج لمن يتكلم في القرآن بغير علم، وأنها تخشى على الإسلام من هذه البدع، وأخرجت كتابا كاملا تهاجمني فيه، ولم أعرف إلى اليوم سر هذا العداء الرهيب، رغم أنها وافقت على الكتاب قبل طباعته، وقالت: تفسيرك عصري وجميل، ولذلك أطلق عليه التفسير العصري"

وبعد انتهاء كلام الدكتور مصطفى والذي لا يمكن أن نكذبه، فإن موقف بنت الشاطئ قمة الغرابة، فهل يا ترى كانت في غيبوبة وهي

تمدح الكتاب؟ أم أنها انطلقت في المديح قبل أن تقرأه ثم اكتشفت ما يناقض أفكارها ومضامينها، أم أن مشاعرها تحولت بعد ذلك للغيرة الشديدة من هذا المؤلف للكاتب الشهير؟!

ومما يؤخذ على بنت الشاطئ أثناء هجومها على الدكتور مصطفى ، أنها حاولت أكثر من مرة أن تقلل من قيمته فتصفه بقولها: الكاتب الصحفي، ثم تعقب ذلك ببعض العبارات التي توحي بروح الغيرة فتقول: "فجأة من حيث لا نتوقع ظهر تفسير عصري لكاتب صحفي مع ضجة إعلامية وحملة إعلانية عن حاجة الناس إلى تفسير عصري.

وحجتها أن هذا الكلام وهذا المنهج له مزالق خطيرة ويعد مخدرا للأمة وشبابها و نتيجة للشعور بالدونية والعجز أمام الحضارة الغربية، ووصف هذا المنحى بأنه بدع مدسوسة، تخرج عن التفسير والالتزام بمنهجيته إلى آخر ما ذكرت من حجج.

لكن المدهش أن هجومها لم ينل الدكتور مصطفى محمود وحده بل عرجت على تفسير علامة عصره الشيخ طنطاوي جوهري (الجواهر) وانتقدته انتقادا لاذعا وجعلته القلبة التي قصدها كل من كتب بهذه المنهجية في تفسير القرآن الكريم.

تقول بنت الشاطئ: "إن هذه المحاولات العصرية لتفسير القرآن هي نتيجة لصدمة التفوق المادي للحضارة الغربية.. قدم طنطاوي جوهري تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف، وتسلل مفسرون عصريون جدد إلى الميدان وقدموا

محاولات ساذجة لتفسير القرآن لطمأنتنا بأننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتطاول به الغرب علينا من علوم حديثة، لكن كل هذا مجرد مخدر."
كان الهجوم عنيفا في حوال خرج في عشرات المقالات.
ثم نأتي إلى المحاولة التفسيرية الثانية التي لم تسلم من هجوم ونقد بنت الشاطيء وهو نقدها لتفسير الظلال.
حين ظهر كتاب التصوير الفني في القرآن في مارس سنة ١٩٤٥ ، تحدثت عنه الدكتورة بنت الشاطيء في جريدة الأهرام، حيث كانت تقدم بعض ما تخرجه المطبعة العربية ناقدة أو مقرظة، وجاء في حديثها ما اضطر صاحب الظلال إلى التعقيب عليه بمجلة الرسالة العدد (٦٢٠) بتاريخ ٢١ مايو ١٩٤٥ أي بعد أكثر من شهرين من ظهور الكتاب فقال ص ٥٢٩ ما نصه :" كتب كاتب – أو كاتبة – في جريدة الأهرام «أن هذا الكتاب محاولة للبحث في جمال القرآن سبقتها اتجاهات في الجامعة وللكتابة على هذا النحو أسباب خاصة ليس من شأني الحديث عنها ، كما أن وصف هذا العمل بأنه (محاولة) مسألة داخلة في دائرة التقدير المتروكة للقراء إنما يعنيني هنا الحقيقة التاريخية وهي انني بدأت هذا البحث ، ونشرت فصولا منه بعنوان (التصوير الفني في القرآن) في المقتطف عام ١٩٣٨م ثم أخرجته كتابا في هذا العام، فأين هي البحوث الجامعية في هذا الاتجاه ؟ إن كان الغرض هو البحث في جمال القرآن ، فهذا بحث قديم قديم وإن كان الغرض هو البحث على

نحو خاص غير مسبوق، فالواقع ينطق بأن ما كتب في الأهرام لا يطابق الحقيقية"

هذا ما قاله صاحب الظلال بعد أكثر من شهرين من ظهور الكتاب، والذين يعرفون لحن القول من الفهماء ، يعلمون أن قطب، كتب "كاتب أو كاتبة" معناه أن

الكاتب هو الأستاذ أمين الخولي و أن الكاتبة قد أملى عليها ماكتبت !.

لقد نفت بنت الشاطئ أو تعمدت هذا النفي لوجود الظلال بمنهجيته الأدبية وذكرت في مقدمة التفسير الذي أخرجته أن هذه المحاولات التي تمت خارج الجامعة ليست محاولات أصيلة لبيان البلاغة العربية ، لقد أنكرت في ذات الوقت وجود التصوير الفني ومشاهد القيامة وما صدر من أجزاء الظلال.. فهذا غمط للحق، وتجاهل متعمد مريب، لا يدفع إليه إلا غيرة علمية وسبق تفرد به غيرها.

ذكر أحد الباحثين أن صاحب هذا التفسير –الظلال– لم يزد على ترديد ما أحسه إزاء النص القرآني، وإذا صح أنه قدم تفسيرا للناس، فليس ذلك تفسيرا للنص، إنما هو تفسير لتجربته الذاتية في قراءته، حيث استغرقته التجربة مع النص، فعجز عن التفريق بين حقيقة النص كموضوع خارجي، وبين موقعه على النفس كذات إنسانية، وهو ما تشير إليه تسميته بـ «في ظلال القرآن». ويقول غيره: ان وراء هذه التسمية اعتبارات في مقدمتها إعفاء نفسه من قيود مثقلة تعوق التحامه

بالقرآن والعيش في ظلاله، وإعفاء غيره -في ذات الوقت - من الالتزام بما يقدم من إفهام وانطباعات نفسية للنص القرآني.

ثم يعقب هذا الباحث في تقييمه لتفسير بنت الشاطئ مقارنة بالظلال فيقول: "أما المحاولة الثانية في هذا الصدد فهي «التفسير البياني للقرآن الكريم» الذي أعدته عائشة عبد الرحمن، تعتبر مثالا بارزا على تطبيق المنهج الأدبي في تفسير القرآن الكريم التي لا تفتأ تروج له في كل دراساتها القرآنية، وكتبها المتعلقة بالقرآن الكريم. ويؤكد الدكتور محمد إبراهيم شريف أن الدكتورة بنت الشاطئ تتحمس لهذا المنهج لترتفع بمحاولتها التطبيقية إلى أن تكون من خيرة الجهود الحديثة في التفسير "

إنه يفضل التفسير البياني على الظلال وتلك مقارنة عجيبة لم ينطق بها أحد من أهل التفسير والمتخصصين فيه، ولكننا هنا نسوق كلمة ذكرها علامة زمانه الدكتور محمد رجب البيومي وهو يقول ردا على أحدهم: إذا أراد (فلان) أن يصل إلى الغاية دون عناء من بحث موازن ممتد، فليقرأ تفسير سورة من سور القرآن كما كتبتها بنت الشاطئ متبعة منهج شيخها وداعية إليه، ثم ليقرأ تفسير هذه السورة نفسها في ظلال القرآن ليجد نفسه مندفعا إلى ترديد قول الشاعر القديم:

الشرق منزلنا ومنزلهم ** غرب وأين الغرب والشرق؟!

وعودة إلى الشيخ الشعراوي فالشيخ لم ينكر التفسير العلمي وغنما تحدث عن وجود الإعجاز العلمي في القرآن الكرم، كنوع من الرد على من يقولون انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم، فقال:

" إننا مع العلم وإشارة القرآن له، يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين، قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم، ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، فنكون حينئذ قد ارتكبنا خطأ كبيرا في حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض"

أي أن الشيخ لا يمنع القول بهذا المنهج ولكنه فقط يبرز تخوفه منه في حالة الاستباق قبل أن تثبت صحة النظرية، مجرد تخوف وخشية من وقوع خطأ يتحمل عاقبته القرآن الكريم، وليس له فيه ذنب.

سلطان الدين وسلطان الفن

ابتداء أقول: إنني لا أقارن هنا بين شعبين أو وطنين، لأثبت أن أحدهما يعشق الدين، والآخر يمور ذوقه مع الفن، ولكنهما حالة واحدة لها صورتين اختلفت كل واحدة منهما عن الأخرى، وما نصيبي فيها إلا التسجيل والمقارنة، بعيدًا أي ذم هنا أو مدح هناك.

إنني أتحدث عن تأثير الفن والدين في قلوب الجماهير، وأيهما أبلغ سلطانا في النفوس، وأشد جذبًا للمهج والعقول.. وأضرب المثل بنموذجين كان لهما تأثير عظيم على العقول، ويشتركان في الجنسية والوطن، ولكنهما يختلفان في نوعية التأثير والمتأثرين.

نعم.. فقد كان كل منهما مصريا، لكن التأثير كان مختلف الجنسية.

في كتاب (لغز أم كلثوم) للكاتب والناقد الشهير رجاء النقاش يقول فيه: "في الساعة العاشرة ليلة أول كل يوم خميس في الشهر يحدث شيء غريب في الشرق الأوسط .. يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة .. في الدار البيضاء التي تبعد ٢٥٠٠ ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهي .. وفي بغداد التي تبعد ٨٠٠ ميل إلي الشرق يحدث نفس الشيء .. الكل أذهانهم . مشغولة بشيء آخر .. وبين هذين الحديث الجغرافيين على طول الصحراء وعرضها ياوى الأعراب إلي خيامهم .. الكل ينتظرون برنامجا معيناً يذيعه راديو القاهرة ، مدة هذا البرنامج خمس ساعات، يذاع ثمان مرات في السنة ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم »

هكذا كانت أم كلثوم وهكذا كان أثرها في وجدان الشعب ومزاج الجماهير.

ولعل هذا التفرد وهذا التميز الذي يرجع إلى هذه الموهبة الباهرة التي كان لها هذا التأثير القوي على أرواح الشعب وذوقه، مما اضطره أن يترك كل شئ في يديه، حتى تلك الساعات التي يستروح بها عن نفسه، ويأنس بها وقته، ويتسامر بها مع أصدقائه، يترك كل ذلك ويهرول ملبيا صوت هواه، منصتا لأم كلثوم.

وأمام هذا المشهد أقول: لعلي لم أسمع بمثل هذه السلطة الطاغية على قلوب الجماهير ولم يُرو لي شيئا شبيها به، إلا ما ذكره لي سيدنا الكبير

فضيلة مولانا الدكتور النبوي شعلان أمد الله في عمره وعمله حينما قال:

كنت أسافر مع الشيخ الغزالي رحمه الله حينما كنا مبتعثين للجزائر، فكان الشيخ يسافر معنا من مطار القاهرة، فيقف في الطابور بمطار مصر كفرد من الناس، يتحمل البهدلة ويعاني من الروتين ويتنقل على موظفي الجوازات هنا وهناك، ويُتم كافة الإجراءات بعد إرهاق شديد، ويركب الطائرة ونتجه جميعا إلى الجزائر.

وتهبط الطائرة في الجزائر، فإذا به يخاطب زملاءه في السفر فيقول لهم: هنا يُفارق كل حبيب حبيبه، فماذا يحدث بعد ذلك؟

ينزل الشيخ الغزالي من سلم الطائرة في الجزائر، فإذا بسيارة رئاسة الجمهورية الخاصة، تنتظره تحت سلم الطائرة لتُقله إلى مكان إقامته.

يحلف لي فضيلة الدكتور النبوي، أنه رأى في التلفزيون الجزائري رئيس الجمهورية وقتها الشاذلي بن جديد، وحينما جاء النادل بالقهوة يقوم الرئيس ويأخذها منه ويقدمها بنفسه للشيخ الغزالي.

بل يحلف لي: إنه رآه بعد الانتهاء من القهوة يقوم الرئيس بنفسه مرة أخرى ليأخذ منه الفنجان ليضعه على المنضدة.

ثم يروي وهو بيت القصيد: إنه في أحد الأيام في بدء وجوده بالجزائر نظر من شرفة حجرته بالفندق فوجد الشارع الرئيسي خالية تماما من المارة، فتعجب واندهش وأخذ يُسائل نفسه: ماذا جرى يا هل ترى؟ هل هناك انقلاب تم وفرض حالة من الطوارئ؟ وأخذ ذهني يموج في

اليمين والشمال، وسرعان ما اتصلت بإدارة الفندق أسألهم وأستفسر عن حالة الشارع الفارغة المريبة.!
فرد علي مدير الفندق بقوله: يا أخي ألا تعلم هذا الوقت الذي يتحدث فيه الإمام الغزالي في التلفزيون."
إنها حالة فريدة لم نكن نعلمها أو نعرفها كمصريين عن الشيخ الغزالي، وقد قدر لمولانا النبوي أن يرويها ويسجلها، ليكون لها اليوم اعتبار في تسجيلي.
تُرى بعد كل هذا، وبين ما سجله رجاء النقاش ومولانا الدكتور النبوي، هل يمكن القول: إن مصر لا تقدر علماءها بينما تقدرهم الجزائر، أم أن الجزائر في تدينها أكثر من مصر التي قيل عن شعبها متدين بطبعه؟
لقد وجد الدين في مصر فهل احتل في قلوب أهلها ما احتله الدين في قلب أهل الجزائر؟
مع أن هذا الشيخ الأزهري المعمم الذي قبض على هوى قلوبهم، كان مصري النشأة والتعليم والإقامة.!
وهو الذي ذاق -المرمطة- في المطار القاهري، بينما عومل معاملة الكبار في مطار الجزائر
ولعلي أتساءل بصيغة أخرى فأقول: ترى لو خصص التلفزيون المصري في ذلك الوقت حديثا أسبوعيا للشيخ الغزالي، فهل كان المصريون يقابلونه بنفس الحفاوة التي لقوا وقابلوا بها حفلات أم كلثوم؟

قد يضرب أحدهم المثل بحديث الشيخ الشعراوي، ولكن هذا المثل لا يصح ضربه والمقارنة به، لأن الناس بعادتهم في ذلك التوقيت في البيوت ساعة الغداء والراحة بعد صلاة الجمعة، وطبيعي أن يقبلوا على مشاهدته وقت راحتهم، أما أن ينتزعهم الشيخ من ساعات مسامراتهم وأشغالهم كما فعل الغزالي في الجزائريين، وكما فعلت أم كلثوم في المصريين، فذلك لم يحدث للشيخ الشعراوي.. وأعتقد أن موعد حديثة لو كان في توقيت آخر، لما أقبل الناس عليه إقبالهم حوله لحظة الجمعة، لحظة الراحة والاستكانة في البيوت.

دعني أقبل يديك

في صالون الـ(دكتور سعيد إسماعيل على) عام ٢٠٠٦م كلفتني صحيفة (الاسرة العربية) التي كان يرأس تحريرها أستاذنا القدير بدر محمد بدر بتغطية المحاضرة التي يقدمها العلامة الدكتور (محمد عمارة) بالصالون ، وكانت فرصة عظيمة لألتقي بالرجل وأشاهده عن قرب وأستمع لفكره النير وثقافته الباهرة ، وما أن دخل الدكتور من باب الصالون حتى وقف الجميع يصافحونه ويحيونه ويسلمون عليه بأيديهم ..ولما جاء دوري مِلت بوجهي وجسدي وانحنيت أقبل يده ..وما أن فعلت ذلك حتى ضج المكان وهاج ماج وأرغى وأزيد وثارت ثائرة زمرة من أساتذة التربية من تلامذة الدكتور سعيد وصاح أحدهم بقوله ليه يابني

كدا ؟ وهنا وقفت وقلت له قولة ابن المبارك : (تقبيل يد العالم والسلطان العادل سُنة) ولم أكمل المقولة حتى اعترضني الرجل بقوله طب بس بس ..لم يطيق أن يسمع مني تفسيرا أو تبريراً لفعلتي التي يظن هو أنها منكرة ..

والحق أني أكبر العلماء وأقدر المفكرين ، وأشعر بامتنان حينما أظهر لهم هذه المعزة وهذا التبجيل ..والدكتور عمارة ليس رجلا هينا في عالم الفكر والثقافة ، فهو من هو فكرا ثاقبا وحجة دامغة وتصانيف عديدة وحجج سديدة ومحاضرات نافعة ..ويكفي أن قال عنه شيخنا الغزالي رحمه الله :محمد عمارة قلعة من قلاع الاسلام في القاهرة ..!!

والشيخ الغزالي نفسه كان من أجدر الناس الذين كنت أحب أن أراهم لأقبل يديه، فله في قلبي مكانة كبيرة بل هو أكثر العماء الذين تأثرت بهم وأفدت من كتبه ومواقفه. وأذكر أن أول من قبلت يده من العلماء شيخنا الدكتور محمد بكر اسماعيل صاحب كتاب الفقه الواضح ، وشيخنا المجاهد الكبير العلامة حسن أيوب رحم الله الجميع..وسيدي وأستاذي وشيخي العلامة الدكتور محمود عمارة رحمه الله رحمة واسعة

كما أنني وجدت خصلة تقبيل اليد أكثر ما وجدتها في كلية أصول الدين حينما كنت أدرس بصفوفها وكان طلبة الدراسات العليا تحديدا يقبلون أيادي الاساتذة ، ولو أن أحدهم قد امتنع عن ذلك فقد وضع نفسه في موضع مريب وجر على نفسه ملا يحمد عقباه ، وربما فسر ذلك منه بأنه استخفاف بالأستاذ أو عدم تقدير له ولعلمه.

وإذا كان تقبيل اليد يزعج البعض ويرى فيه صورة من تقديس البشر والغلو في تقديرهم فماذا يقول وكيف به لو رأى الناس حينما مات شيخ الاسلام (ابن تيمية) رحمه الله وقد شربوا الماء التي غسل بها رحمه الله بركة من جسده المبارك ؟!

قال النووي في روضة الطالبين : ولا يكره تقبيل اليد لزهد وعلم وكِبَرِ سِنّ

وقال أيضا : وأما تقبيل اليد ، فإن كان لزهد صاحب اليد وصلاحه أو علمه أو شرفه وصيانته ونحوه من الأمور الدينية فمستحب ، وإن كان لدنياه وثروته وشوكته ووجاهته ونحو ذلك فمكروه شديد الكراهة..

وقال البهوتي في كشّاف القناع : فيُباح تقبيل اليد والرأس تديّنا وإكراما واحتراما

وكان الصحابة يقبلون أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أيضا كان الصحابة مع بعضهم وكذلك فعل غيرهم معهم .. روى البخاري في الأدب المفرد عن عبد الرحمن بن رَزين قال : مررنا بالرّبذة ، فقيل لنا : ها هنا سلمة بن الأكوع . قال : فأتيته ، فسلمنا عليه ، فأخرج يديه فقال : بايعت بهاتين نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فأخرج كفّاً له ضخمة كأنها كف بعير ، فقمنا إليها فقبّلناها .

وقال الألباني رحمه الله : حسن الإسناد .

وروى البيهقي في السنن الكبرى زياد بن فياض عن تميم بن سلمة قال : لما قدم عمر رضي الله عنه الشام استقبله أبو عبيدة بن الجراح رضي الله

عنه فقبّل يده ، ثم خلوا يبكيان . قال : فكان تميم يقول : تقبيل اليد سنة .

وإذا كان المنكرون لتقبيل اليد من المتحررين والتنويريين والحداثيين والمتغربين يفزعون لهذه الفعلة وهذا السلوك فهل يفزعون أو ينكرون بنفس الحرقة على المهووسين بأئمة الفسق والفجور ..إن راقصة الباليه العالمية الروسية تَمارا بلاتونوفنا كارسفينا والتي قيل في وصفها أنها صاحبة أجمل ابتسامة ، وقيل أيضا هي إنسان آلي دقيق عندما تظهر على المسرح ...وهذه الراقصة اكتشفت يوما أن حزاءها قد سرقوه وهي عادة مألوفة في أوروبا يسرقون حزاء الراقصة التي يعجبون بها ، وأحيانا يضعون فيه النبيذ ويشربونه ، فسارت الراقصة في الشوارع حافية القدمين ودخلت أحد المطاعم اليونانية وأقسم عليها صاحب المطعم أن يغسل قدميها في طشت مليء بالشمبانيا ، وأن يقدم ذلك لمن يريد من الضيوف والزبائن فشرب منه ٩٠٪ من زبائنه ومريديه..!

وياله في تقدير المخلولين انبهار وتقديس للجمال والرشاقة والأناقة أما أن يشرب ماء غسل ابن تيمية فهو نتانة وتخلف وتقديس وعبودية ورجعية ....!!

الكاتب الخمورجي

ماذا بك لو رأيت كاتبا في يوم من الأيام يبيح الزنا ويروج له، بحجة أنه يروي العاطفة، ويمنح السعادة للنفس، ويجدد طاقة الإنسان؟

بل ماذا بك لو رأيت كاتبا يدعو إلى السرقة زاعمًا أنها تغني الإنسان وتوفر له الرزق دون سعي وكلل وتعب؟

هذا هو بالضبط وتماما ما فعله الكاتب سلامة موسى في كتابه الجاذب للعيون والعقول (حياتنا بعد الخمسين) حينما تحدث عن أثر الخمرة في صلاح النفس والجسم معا، وأنها ضرورية لكل من جاوز الستين، "فهي توسع الشرايين في الشيخوخة، وجميع الأوروبيين يشربونها، وهم أطول أعمارا وأحسن صحة منا، ثم هي تفكك العقد التي تحدثها مشكلات الحياة لنا، كما أنها تجعلنا نستغرق في نوم عميق طول الليل، لنستيقظ في صباحه ونحن منتعشون بعد الراحة"

وهنا نقول : إن الوعي بخلفية أي كاتب شيء مهما جدا، لأنه يبصرك بحقيقة وماهية أفكاره، ويقف بك على أبعاد مراميه وغاياته، فهناك كثير من الكتاب يدسون السم في الدسم، ويغرون الناس باسم العلم والدين والأدب والفكر حتى يمرروا أفكارهم الخبيثة وأغراضهم الدنيئة التي تصادم القيم والدين والعقل والضمير.

وهؤلاء الكتاب منهم الذكي ومنهم الغبي ، منهم من يغمز إلى باطله بموارية طفيفة دون إشارة صريحة مباشرة، حتى يستقر ما يريده في وعي القارئ في وعي القارئ ويتسرب إليه.

ومنهم من يغلبه حقده وإصراره فيباشر في قوله ويعيد ويزيد، ويكثر القول والترديد بما يخل ببنية الأسلوب دون أن يشعر، بل ويكشف لك أن الكاتب صاحب غرض صريح معلن.

وهو ما فعله سلامة موسى حينما أخذ يكرر الحديث عن الخمر وكأنها الأمل لكل من بلغ الشيخوخة، أو الإكسير الذي سيهب الشيوخ طول العمر وكثرة الأيام، كرر الحديث عنها لأكثر من تسع مرات وفي صفحات مختلفة.

لقد خدع الناس وجدد الأمل لليائسين بالمحرم الممنوع.

منذ بضعة شهور طلع علينا كاتب ممن كنا نظن بهم الخير، لكنه أثبت أن بعض العقول قد تصيبها لوثة وشطط من الأفكار التي يقف المرء أمامها حائرا منكرا، وقد أبى إلا أن يخرج هذا الشطط مسطورا للقراء، حينما زعم أن هذا الكاتب الذي يسمى سلامة موسى من أصحاب الفكر الذي بيننا وبينهم اختلاف في وجهات النظر، لكننا لابد في النهاية أن نقرر أننا أمام مفكر كبير صاحب رؤية خاصة جديرة بالمناقشة والأخذ والرد"

وكان يبقى عليك أن تقول: جديرة بالإقناع أيضًا، لأنك صورته بالضحية التي تتعرض للعسف والجور من بعض المتشددين، وهي الصفة التي تجر التعاطف معه ومع ما يقول.

وسؤال واحد نسأله له لهذا الكاتب، ونريد منه الإجابة عليه: هل أنت بهذا الإطراء والمدح والإكبار تقرر ما كتبه الرجل من زيوف ومنكرات، ودعاوى خبيثة شيطانية تحاد الله ورسوله؟

ربما يكون كما ذكرت أنه من دعاة النهضة والتنوير، ولكن أين أنت مما دعا إليه مما يخالف دينك وعقيدتك؟ ألم تحملك الغيرة على معتقدك أن ترفض أو تلمح لبغضك ما كتب، حتى يتبين القارئ أن فيما كتب صاحبك، سلب وإيجاب، معقول ولا معقول، إيمان وكفر؟ إن فعلك للأسف قد روج لكل أفكاره دون بيان وتمحيص فجافيت الإنصاف من حيث اعتقدت أنك من المنصفين.

وهو النوع من المفكرين الذين يتعاطف معهم كثير من الجهلاء ظنًا منهم أنه عقلية يجب الانتصار لها أمام دعاة الرجعية والظلام.

والحق أن الرجل لم يكن بهذا المنحى، فقد كان يناصر الشطط ويدعو للمحرمات، ولا يحترم عقيدة المصريين التي تخالف عقيدته، ومن ثم لا يجب الالتفات لكل ما يقول لأنه يفقد معنى الانتماء والتصديق لمنطوق الإسلام.

بقي أن نعلم أن العلم الحديث بعلمائه ومؤتمراته وأبحاثه قد خالفت هذا الخطل الذي سطره موسى في كتابه، فندد الجميع بما تجره الخمر على المجتمع الإنسان من مخاطر صحية ونفسية، ولم تكن هذه المؤتمرات والتنديديات في بلاد الإسلام وعلى أيدي علماء مسلمين، وإنما قام جلها في فرنسا وانجلترا وأمريكا وبلجيكا.. ويبقى التساؤل: هل كان سلامة

موسى يجهل مثل هذه الأقوال التي نقطت بها هذه المؤتمرات العلمية الكبيرة، وفي بلدان الغرب التي يواليها ويمالئها؟ أبدا لقد كان يدرك ويعقل، ولكن الرجل يريد للمسلمين أن يمتهنوا الإسلام ويخالفوا أمره، فهل مثل هذا يمكن أن يندرج تحت عنوان من نأخذ منهم ونرد؟ وإذا كان هناك ما يمكن أن نأخذه منه، فلماذا لا نوضح للناس أن لديه الكثير مما يجب أن نرفضه ونحذر منه.

الحمد لله.. ما أحببتها يوما

مما أحمد الله عليه في حياتي أنني لا أهوى كرة القدم ولا أحب مشاهدة – المباريات– وأنظر بغرابة لكثير ممن هم حولي من المتعصبين للكرة إلى حد الهوس، وأتعجب أكثر حينما يأتي موعد المباراة فتتوقف لديهم مسيرة الحياة والزمن، ليشاهدوا المباراة ويقدمونها على كل شيء في حياتهم.

وإذا حاول صديقي المهووس بالمباريات أن يصحبني معه، أسير مضطرا وأجلس بين المشجعين كالغريب المستوحش، أو كالتائه الذاهل، فليس هاهنا مكاني وليست هذه جنتي.

وأرى أحدهم يمكن له أن يتخلى عن أي ضرورة في حياته مهما كانت قهرية، لكنه لا يمكن أبدا أن يتخلى عن مشاهدة المباراة.

وأنا هنا لن أنتقد المهوسين بكرة القدم التي صار لها غرام عالمي، ولن أصفهم بأنهم تافهين أو فارغين، حتى لا يحزن أحد أو يتضايق مني أو يغضبه وصفي، لأن المشكلة أكبر من هذا، فهي مشكلة اجتماعية ولها أبعاد سياسية وأصابع فكرية.

كنا ونحن صغار في قريتنا، لم نجد محضنا يستوعبنا ويجمعنا غير نادي الشباب الذي لم يكن له اهتمام بثقافة أو فكر أو توعية، وإنما القرة وحدها التي صارت تشكل عقل الجميع ووجدان الصبيان حتى شبوا عليها وهي معشوقهم الأسمى.. ولو أنه وجدت محاضن أخرى تستوعب الصبية لكن لنا نمط آخر.

هناك من يريد إبعاد عقولنا عن الاهتمام بوطننا ومستقبله وقضاياه، وهناك من يريد تهميش عقولنا وتقزيم أفهامنا حتى نبتعد عن غاياتنا وكل باعث لنا على العمل والنهوض والتقدم، وإني أري أن الغرام بالكرة من صور الغزو الفكري في مجتمعاتنا المسلمة.

وربما تكون من باعث الراغب نفسه كمحاولة للهروب من آلام ومآسي الحياة وجراحات الفقر والعوز، ومن عجب أن البعض يبرر الكرة بأنها ترويح للناس عن آلامهم، بدلا من أن يعالج هذه الأمغاص.

إن حولنا كثير من المصائب التي تجعل المرء الذي تأخذه كرة القدم إلى حد التعصب الممقوت أو تتملك هواه جريمة وجناية.

كيف تحوطني وتحوط أوطاني كل هذه البلايا، ثم أهرول إلى المباراة ومعاينة اللهو والعبث، نحن الان نخاطب عقولا تفقد الحس والشعور وربما تفقد العقل.

كثيرون لن يعجبهم هذا الكلام لان الكرة إدمان يغلب على هوى أحدهم دون إرادته، وكما ذكرت أنني لا أريد أن أمعن في نقد الجماهير، بقدر ما أسلط الضوء على سبب الداء وعمق ومنبت الإشكال.

درست قديما أن معاوية بن أبي سفيان حينما أراد أن يشغل الناس عن الحديث في القضايا المهمة، أحيا سوق عكاظ والمنافسات الشعرية وأحيا العصبيات القبلية، كل يرى سمو قبيلته فوق سمو الإسلام، لينشغل الناس عنه وعن مراداته.

وقرأت كذلك مؤخرا أن: "فيديو إعلان صفقة انتقال أحمد مصطفى سيد الشهير بـ «زيزو» تخطى ٣٥ مليون مشاهدة و٥ ملايين تفاعل على حسابات النادى الأهلى الرسمية فى أقل من ٢٤ ساعة، فى سابقة لم يشهدها الوسط الرياضى المصرى. وما إن انتشر، حتى اشتعلت مواقع التواصل الاجتماعى بحالة من الجنون الجماهيرى، سجالات حامية، اتهامات، انفعالات، ومشاعر مختلطة بين جمهورين لا يعرفان الحياد.. وكأن الكرة أعلنت قيامتها!"

هل هذه هي مصر وهذا هو جيلها الجديد الذي يجب أن يحمل قيادتها في المستقبل؟

انشر أي مقطع لأي قضية سياسية أو اجتماعية، فلن تراها بهذا الاقبال المهول، لأن العقول أفرغت من الواجبات والمسؤولية التي تناط بها.
لقد أعجبني جدا هذا التحليل القائل بأن فى المجتمعات التى انهارت فيها الثقة بالمؤسسات والأحزاب، تصبح الفرق الكروية كيانات بديلة للهوية والانتماء!. وقد تجد أن ٥٠٪ من مشجعي الأهلي والزمالك ولاؤهم لناديهم أقوى من انتمائهم لأى كيان سياسي أو حتى قضية وطنية كبرى، وقد أكد استطلاع أجرته شركة «يوغوف» عام ٢٠٢٣ أن ٤٢٪ من الشباب العربى تعد كرة القدم «ملاذاً» نفسياً لهم من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وما يوصف بـ«التعصب الكروى» ليس سوى تعبير عن غريزة الانتماء للقبيلة، كما فسّرها سيجموند فرويد فى تحليله للبُنى الجماعية."
إن الفراغ الذي يكتسح عقولنا، يكبل مستقبلنا ولن تجد لهذه العقول أي اهتمام بقضية مصيرية تشكل وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا، وذلك خطر كبير جرته علينا كرة القدم.
نريد من الدولة أن تعد شبابها وتعلمه الاهتمام بالقضايا المصيرية حتى تجدهم في اللحظات الحرجة رجالا أشداء يحمون ترابها ويصدون عدوها.. الجيش المصري يعد الرجال والأبطال، ولكن المدرسة والمسجد والمنتديات الثقافية والفكرية تعد العقول، التي إن توافقت مع جسد قوي، صارت بلادنا قوية عفية.

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب، فقال يحيى : ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلي ، فهو قول الله تعالى : وآتيناه الحكم صبيا.

الغرام في اللحظات الأخيرة

غرام النفس وعشقها وهواها، وألفتها ودنياها، إنه الهوى الذي يأسر مهجة الإنسان، فيعيش له ويعيش به ويعيش فيه.

فوق الحب وأعلى من الحب وأعمق من الحب، ومن الجور أن نصفه بالحب، فالحب يمكن أن يستبدل بالكره، أما الغرام فلا يعترف بالكره ولا يمكن أن ينال منه البُغض.

مخطئ أنت لو ظننت أنني أحدثك عن عشق النساء، والهيام بالجميلات، فهناك في الحياة ما يمكن أن يتفوق على حبك للمرأة وانبهارك بالفاتنات.

والمرأة يمكن أن يزول حبك لها لو تعودته وألفته ليصير أمرا عاديا لا إبهار فيه ولا جديد.

لكنني اليوم أتحدث عما يهواه الإنسان في حياته من حرف ومهن وعادات ومواهب، يعيش طول حياته يعمل بها فلا يصيبه منها ملل أو كلل، ولا تجده أبدا حيالها في حالة الشبعان الممتلئ، أو الزاهد المكتفي.. يمضي في سحرها الوقت، ويتبخر في ثناياها الزمان، حتى تأتي اللحظة

الأخيرة من حياة الإنسان فيظن أنه انفك عنها وانفكت عنه، فلا يلبث إلا أن يجد نفسه معلقا بها حتى الرمق الأخير.

قرأت مؤخرًا تلك المقالة التي كتبها الدكتور محمود وهو الإبن المكلوم في أبيه الراحل الجليل الدكتور حلمي القاعود، كتب الإبن يصف لنا هيام أبيه بالصلاة وولعه بها وتطلع نفسه إليها وذوبانه في حركاتها، وما أشد على ما قرأناه مما انسابت معه العبرات وانحدرت على وتيرته الدموع.

كتب الإبن يقول في أبيه:

كَانَ وَالِدِي الشَّهِيدُ الْمُجَاهِدُ حَلْمِي الْقَاعُودُ، رَضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ، رَجُلًا تَعْلُو الصَّلَاةُ فِي قَلْبِهِ كَالنَّجْمِ الْوَهَّاجِ، تَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ أَوْلَوِيَّاتِهِ، فَلَا شَيْءَ فِي حَيَاتِهِ يَعْلُو عَلَيْهَا! كَانَتِ الصَّلَاةُ نَبْضَ رُوحِهِ، وَرَاحَةَ قَلْبِهِ، وَسَكِينَةَ نَفْسِهِ. مَتَى مَا تَرَنَّمَ الْمُؤَذِّنُ بِنِدَاءِ الْحَقِّ، أَجَابَهُ كَالطَّائِرِ الْحُرِّ، يَنْطَلِقُ مُلَبِّيًا، سَوَاءٌ أَكُنَّا فِي رِحْلَةٍ، أَمْ فِي مُحَاضَرَةٍ، أَمْ عَلَى طَرِيقٍ سَرِيعٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْمَسَافَاتُ! لَمْ يَكُنْ لِلظُّرُوفِ سُلْطَانٌ عَلَى عَزِيمَتِهِ، وَلَا لِلْمَكَانِ قَيْدٌ عَلَى إِيمَانِهِ.

وَفِي أَيَّامِ مَرَضِهِ الْأَخِيرَةِ، حِينَ كَانَتْ رُوحُهُ تَتَأَهَّبُ لِلِقَاءِ رَبِّهَا، كَانَتْ كَلِمَاتُهُ تَخْتَرِقُ قَلْبِي كَالسِّهَامِ: «مَشْ عَارِفْ أُصَلِّي يَا مَحْمُودُ... نَفْسِي أُصَلِّي يَا مَحْمُودُ»! كَانَ صَوْتُهُ يَحْمِلُ أَلَمَ الْعَاشِقِ الَّذِي يَشْتَاقُ إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَلَكِنَّ الْجَسَدَ الْمُنْهَكَ يَخْذُلُهُ. فَكُنْتُ أُجِيبُهُ، مُتَمَسِّكًا بِرَحْمَةِ اللهِ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ»، وَ«لَيْسَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ»، وَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ مَا

يُحَاسَبُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ.وَكُنْتُ أُذَكِّرُهُ: «حَضْرَتُكَ الَّذِي عَلَّمْتَنَا هَذَا الْكَلَامَ»! لَكِنَّهُ، بِقَلْبِهِ الْمُتَوَقِّدِ، كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، يُنَاجِيهِ فِي صَلَاتِهِ.

فِي فَجْرِهِ الْأَخِيرِ، قَبْلَ أَنْ تَحْتَضِنَهُ غُرْفَةُ الْعِنَايَةِ الْمُرَكَّزَةِ، كُنْتُ أُصَلِّي، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرِهِ، يَنْصِتُ إِلَيَّ بِكُلِّ حَوَاسِّهِ، وَأَنَا أَتْلُو آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. كَانَ يُصَلِّي بِقَلْبِهِ، بِرُوحِهِ، كَأَنَّهُ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَعْبُدُ رَبَّهُ بِكُلِّ جَوَارِحِهِ، وَإِنْ عَجَزَ الْجَسَدُ. كَانَتِ الصَّلَاةُ رُوحَهُ، وَرُوحُهُ صَلَاةٌ

وصدق القائل: للناس فيما يعشقون مذاهب

وهو العشق المتأصل في أعماق النفس وتلابيب الذات، فلا يلبث إلا أن يظهر بقوة في اللحظات الأخيرة، لحظات الفراق، فلا تدري أتلبّس بالنفس أم تلبست هي به؟

كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وهو في مرض الموت يملي على التلاميذ مسائل الفقه، فلما طالبوه أن يستريح رد قائلا: لو بقي من عمري لحظة، لأحببت أن أجعلها في شئ ينفع المسلمين.

أحب الفقه وعاش له وأبى أن يفارقه في دقائقه الأخيرة.!

كان الصحفي الكبير الأستاذ "علي أمين" في مرض موته، وفي ساعات الغيبوبة التي سبقته، زاره الدكتور السيد أبو النجا، وكان مشفقًا عليه إذ لا يريد أن يراه في هذه الصورة المؤلمة، لكن أخوه مصطفى أمين أصر على أن يجلس السيد أبو النجا بجواره إلى أن يفيق علي ويراه، لأنه كان يحب أن يرى بجواره، إخوته في العمل الذين بنوا معه هذا الصرح

الصحفي الكبير، وما إن أفاق علي أمين رحمه الله، والتفت إلى جانبه ورأى الدكتور أبو النجا، حتى ابتسم وقال له: "دكتور سيد، كم توزيع الأخبار الآن؟" وانسحبت الكلمات في حلق الدكتور السيد أبو النجا، حبستها الدموع، ولم يستطع أن يسعفه بالإجابة، وعاد علي أمين إلى غيبوبته ولم يسمع الإجابة إلى أن فارق الحياة.

كانت الصحافة قلبه وعشقة وكانت آخر ما جاد به في اللحظات الأخيرة من حياته.

سُئل الأستاذ مصطفى أمين متى تعتزل الكتابة؟ فقال: "إنني أريد أن أموت والقلم في يدي، فأنا أكتب كما أتنفس. إنني أتوقف عن الكتابة عندما أتوقف عن التنفس."

وسألته مرة إحدى الشابات: "وهل معنى ذلك أنك ستكتب دائماً؟" فقال: "سأستمر في الكتابة حتى يقصف قلمي، وعندما لا تجدين مقالي، فاعلمي أني إما مت أو ماتت الحرية في بلادي."

وفي يوم من الأيام، أمسك الأستاذ العقاد بقلمه، وعندما أراد أن يكتب، وجد يده ترتعش ولم يستطع أن يكمل الكتابة، وهنا حزن كثيراً لأن ذلك اليوم هو اليوم الذي كان يخشاه، لأن معنى أن يقف قلمه أنه يموت. ولم يلبث الحزن أن عصف بقلبه، فرحل بعدها بأيام، مات بعد أن توقف قلمه ولم يعد قادراً على حمله.

وهنا أتدري من هو المجنون؟

المجنون هنا هو الذي تأكل النساء عقله ليهبهن عشق اللحظة الأخيرة من دنياه.. نعم سيكون تماما كهذا العاشق المجنون الذي قص علينا خبره صاحب طوق الحمامة، حينما وجد امرأة فاتنة أمام بيته تسأل: أين الطريق إلى حمَّام منجاب؟، فغرم بها وساقه العشق خلفها، حتى أفلتت منه بحيلة ولم يجدها فَزَاد هيمانه، وَاشتد هيجانه، حتي صار في الطرقت منشدا :

يارب سائلة وقد تعبت* أين الطريق إلى حمَّام منجاب

وَلم يزل كذلك حتى كَانَ من أمره أنه لما نزل بِهِ الْمَوْت وجاءت ساعة احتضاره ، فَقيل له قل: ''لَا إِلَه إِلَّا الله '' .. فلا يستطيع، إنما جعل يقول:

أَيْن الطَّرِيقُ إِلَى حمَّام منْجَاب؟

الثقافة والسلطان

الثقافة لا تتمدد ولا تتسع ولا تنتشر، إلا إذا دعمتها السلطة، ولقيت تأييدًا من السياسيين وأصحاب النفوذ والقرار.. ولهذا كان أكثر الأدباء الكبار حينما يريدون الترويج لأسمائهم فإنهم بجوار اعتمادهم على العلم والفكر والموهبة، يعتمدون في المقام الأول على حزب يمتلك أعضاء في البرلمان، ووزراء في الحكومة، وصحيفة توجه الرأي العام، ومعنى هذا، أنه سيطل من أي هذه الوجوه على الجماهير ليُعرف ويشتهر، هكذا فعل

العقاد، وهكذا فعل طه حسين، وقد كان زكي مبارك يتحسر على نفسه وأدبه، أنه لم ينافق ولم يسع لتأييد السياسة والأحزاب، ومن ثم بار أدبه، ولم يكن هناك من يحتفي به بما يقارع مكانته الكبار ويوفيه حقه.

كذلك الأفكار والمذاهب إذا كان لها من تأييد السلطة نصيب، فإنها ستنتشر وتتوغل، ويدين بها القاصي والداني، انظر مثلا للمالكية في بلاد الأندلس والمغرب، فقد بدأت بتولية بعض المالكية الذين حرصوا بعد ذلك إلى تولية تلاميذهم وأتباعهم حتى تسير البلاد كلها على المذهب المالكي وقد كان، وكذلك العثمانيين مع المذهب الحنفي حتى صار صبغة كثير من المسلمين في بلاد الشرق.. والسلطة طريق يسير مختصر لانتصار المذاهب والأفكار وانتشار اللغة، فإذا ما تم تأييد السلطة، فقد سهل بعد ذلك السيطرة على الجماهير وإقناعهم بالأفكار والآراء، أهم شيء أن تأذن السلطة وتفسح المجال، بلا عوائق أو قيود.

لقد وقف السوفييت بجوار عبد الناصر، في تحديه للقوى الكبرى وبناء السد العالي، بنوا هذا السد بأموالهم ومهندسيهم، ولم يكن هذا التأييد لأنه حليف موسكو، ولابد من مناصرته والوقوف بجواره وتأييده، ولكن كان هناك ثمن، وثمن فادح، وهو أن يتولى الشيوعيون السيطرة على مقاليد الأمور في مصر، سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا، إلخ.

وانصاع ناصر لمطالب الروس مضطرًا أو متحمسًا، فلا يهمه شيء في مصر إلا زعامته وإرضاء شهوات نفسه، فمكن الشيوعيين من أدوات الاعلام كلها من صحافة وإذاعة ومسرح وثقافة، وكان صديقه هيكل

محاطا في الأهرام بأقطاب الشيوعية مثل محمد سيد أحمد ولويس عوض وصلاح جاهين، كما رتب الشيوعيون وخططوا للاستيلاء على دار اخبار اليوم من مؤسسيها علي ومصطفى أمين، فلفقوا لمصطفى قضية تخابر مع أمريكا وأودع في السجن، وصار الطريق مفتوحًا للسيطرة عليها، وصار محمود أمين العالم رئيسا لصحف الدار ، جريدة الاخبار اليومية ومجلة أخبار اليوم الأسبوعية ومجلة آخر ساعة، ثم كانت سيطرتهم على دار الهلال وأصبح أحمد بهاء الدين رئيسا لتحرير المصور كبرى مجلات الهلال.

وتوزع كثير منهم على مختلف الصحف بحيث صارت لهم السيطرة الكاملة على الإعلام، وهذا دومَا من أساليب الشيوعية ومخططاتها للسيطرة على العقول من عهد لينين، وأما في الثقافة فقد عين ناصر د. ثروت عكاشة الذي عين بدوره محمود أمين العالم مديرًا للهيئة العامة للكتاب وسعد كامل مديرًا للثقافة الجماهيرية، وحمدي غيث وسعد أردش رؤساء أو نواب لهيئة المسرح، وكان التوجه وقتها كله شيوعيًا بإيعاز من روسيا وتصديق من ناصر، وهو الغزو الاعلامي الثقافي الذي جعل الشعراي فيما بعد يسجد شاكرا لله أن هزمت مصر في ٦٧ لأن النصر لو كان فلن يكون لله وإنما لروسيا، أي أن الشيوعية ستتوغل أكثر وأكثر حتى تتغير عقائد الناس.

وهكذا تعلب السلطة دورًا كبيرًا في تشكيل عقول الجماهير وانتصار الثقافات، ووأد الأفكار المغايرة وتقزيم حجمها ووجودها، ولعل هذه

هي الفكرة التي أشار إليها أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه حينما قال: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"

الباشوية والطعمية

هل خلق هؤلاء الناس من فولاذ فصارت لهم طبيعة غير طبيعتنا، هل وُجدوا من طينة مغايرة لطينة أمثالهم من البشر، حتى يخرجوا بهذا الجَلَد والصمود بل وهذا الشموخ؟!

نعم إن هذا ما يمور به عقلي حينما أتأمل جسارة واحد منهم في مواقفه وتصرفاته التي لا يقوى عليها كثير من الناس، فالمرء دائمًا ضعيف هذيل أمام الإغراء تارة، وأمام الخوف تارة أخرى، ومعنى أن يوجد رجل لا يعبأ بكل هذه المكاره ويتصدى لها بقوة ويقف في وجهها صامدًا أبيًا، فهذا لا شك عظيم من عظماء الحياة.

في التاريخ رجل شريف يعيش في الدنيا كأي إنسان ويؤدي وظيفته كأي موظف، لا يدري به أحد ولا يعبأ بذاته غيره، حتى يأتي موقف واحد ليكتشف الناس أنهم أمام جبل من الصمود وباسل من أولئك يعشقون الحرية والشرف والنبل، وتظهر لمحة المبادئ التي يعتنقونها ويؤمنون بها لتساوي لديهم معنى الحياة، فإذا فقدوا مبادئهم فقدوا حياتهم ولا قيمة بعد فقدها للحياة.

(محمود رشاد) اسم مشرف في تاريخ القضاء المصري، فعلى أي شيء كان هذا الشرف وهذا الفخار؟

كان القاضي محمود رشاد رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية، ورغم هذا المنصب القضائي المتميز إلا أنه أعلن استقالته منه وعدم رغبته فيه، فلماذا يا تُرى كان هذا الرفض والعزوف؟

قدر لهذا القاضي أن يكون هو الحكم في قضية شغلت الرأي العام في ذلك الوقت وهي قضية الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير جريدة العلم بسبب موقفها السياسي ومهاجمتها للإحتلال والخديوي وبلاطه وحاشيته في أغسطس عام ١٩٠٨، واتهموه فيها بنشر أخبار كاذبة بل وإهانة وزارة الحربية.

كانت فرصة لكل هذه الجهات الحكومة ورجال الخديوي ومن قبلهم الاحتلال البريطاني أن ينكلوا بجاويش حتى يكون حبسه عبرة لكل من يتجرأ مثله عن التطاول على هذه الجهات..

وتوقع الجميع أن تصدر العقوبة على الشيخ جاويش لكن القاضي النزيه حكم بالبراءة من تهمة نشر الأخبار الكاذبة وفي القضية الثانية حمله غرامة ٢٠ جنيهًا فقط، ولما صدر الحكم استأنفت النيابة لقلة العقوبة، ولكن القاضي رشاد فاجئهم بالحكم الثاني حيث برأ جاويش من التهمتين.

كان هذا الحُكم وموقف رشاد قد أزعج الحاشية الخديوية والإنجليز معًا، فلجأوا إلى الضغط على القاضي حتى ينفذ مأربهم ويتراجع عما

أصدره من أحكامه، وهنا يتحرك المارد الجبار صاحب المبادئ والعزة والكرامة، فرفض رغبتهم ولم يمتثل لأوامرهم وقدم استقالته وفضل أن يبتعد عن هذا المناخ الذي يعج بالفساد ويضغط على القضاء.

وكان لهذا الموقف عواقبه الجسمية على الحكومة التي خشيت أن يفضحها القاضي النزيه حينما يروي للناس أنه استقال بعد محاولات الضغط لتغيير نص الحكم القضائي، وطلبوا من سعد باشا زغلول وزير الحقانية وقتها سرعة التحرك لتدارك الأمر بالضغط على رشاد وإقناعه أن يعود إلى عمله وينسى ما عُرض عليه أو طلب منه، لكن القاضي أصر على الرفض، وأمام هذا الرفض ارتعدت الحكومة أكثر وأكثر، تخاف أن يروي الرجل شيئًا من تحريضها على جاويش وهو ما يعني عدم نزاهتها وتخاذلها في موقفها الوطني، ففكرت أن تُغري القاضي برتبة الباشوية، وهي رتبة يسيل لها لعاب الكثيرين، وإذا بالرجل الشريف الأبي يفاجئهم بما يدهش الألباب فيعلن رفضه الشديد لهذه الرتبة العَلِية، بل هددهم بقوله: "إنهم إن لم يكفوا عن هذا سأرحل وأترك البلاد"

ثم كتب الرجل عن رفضه للباشوية وعلل ذلك بكلام رجل يعشق الحرية والبساطة والرضا والإدراك العميق للسعادة الحقيقية في هذه الحياة فقال: "كيف أقبل هذه الرتبة وأقيد نفسي، كيف أتنازل عن حريتي ولا أتمكن من ركوب التِرام في الهواء بين الناس في الهواء الطلق،

ثم إن الباشوية ستحرمني أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك".

إننا أمام رجل عجيب مختلف، ورجل ذو موهبة خارقة في التعامل مع المبادئ، إذن كان من الممكن له أن يوفق بين الأمرين ويقبل الباشوية طالما اعترفت الحكومة بخطئها واحترمت أحكامه القضائية، ولكن العجيب في هذا الرجل ومع هذا الدرس أن احترامنا له صار في دهشة، فعلى أي شيء نقدره، على موقفه الوطني من الشيخ جاويش، أم على عِزة نفسه، أم على تعاليه على المناصب والرتب، أم تصالحه مع ذاته ورضاه العجيب وإيمانه بالحرية وإدراكه لمعاني السعادة الحقيقية؟! أمور كثيرة جعلت من الرجل عظيمًا من العظماء.

بقي أن أُشير إلى احترامي الشديد للحكومة، فالحكومة التي تخاف على سمعتها وتحافظ على شرفها أمام الناس ولو ظاهريا هي حكومة محترمة مقدرة.

الأهرام تفاجئنا

شيء جميل ما حدث أمس الجمعة من جريدة الأهرام حيث نشرت تقريرًا أدبيا تحت عنوان (أدباء خاصمتهم الأضواء.. حكايات وأسرار)

كان من المتوقع أن يكون الحديث عن أدباء تتوافق أفكارهم من التوجهات العلمانية التحررية التغريبية وذلك لغلبة المتغربين ومن يسمونهم بالتنويريين وسيطرتهم على الصحف ومنابر الإعلام، لكن ما حدث أمس من الأهرام كان شيئًا غير مسبوق حينما تحدثت عن عادل كامل وجاذبية صدقي، وكانت المفاجأة المذهلة حديثها عن الرائد الإسلامي الكبير محمد فريد وجدي.. وفعلا ما كان فإن من الغرائب المدهشات أن يُجهل رجل عالم أديب مفكر مثل فريد وجدي، ولا يعرفه المشتغلون بالفكر والأدب، بل لا يعرفه كذلك المتدينون ولا يقرؤون له، وقد كان الرجل في يوم من الأيام حائط صد إسلامي كبير، وفارسًا من الفرسان الذين يذودون عن حياض الدين، وأنت تعجب من الأستاذ العقاد الذي قلما تنفعل عاطفته وقناعته برجل، فإذا شهد لأحد من الناس، فإن هذا المشهود له لا شك على درجه كبيرة من العظمة والعبقرية، بينما العقاد لم يشهد لفريد وجدي فقط، وإنما كان مفتونا به، وجزم أنه كان له من اسمه نصيبا فهو فريد لا مثيل له.

لم يكن العقاد وحده من ذكر فريد وجدي وأشاد بفضله وعظمته، بل نجد شيخنا العلامة محمد رجب البيومي كان أكثر حفاوة وافتتانا بالأستاذ وجدي، حينما اندفع ينقب عن تراثه ويعيد إحياء كتبه للقراء، بل سارع فألف كتابا خاصا عنه، وشجع أقرب تلاميذه إليه وهو الدكتور هشام البيه أن ينال رسالة الماجستير عن الأستاذ محمد فريد وجدي.

هذا الرجل المدهش كان أمة وحده، وخير شاهد على هذا دائرة معارف القرن العشرين التي ألفها من ١٠ أو ١١ مجلدا كبيرًا وهو العمل الذي لا ينجزه إلا جيش عرمرم من الباحثين، لكن وجدي تحمل العبء وحده.

كان مما يميز وجدي رغم غيرته على الدين، أنه كان مهذبا إلى أبعد حد، لطيفا هينا لينا يكسب قلوب خصومه قبل محبيه، حاول يوما زكي مبارك وهو صاحب اللسان الحاد الذي ينطق أحيانا بالسم، وأحيانا أخرى يتحول إلى رعد قاصف لا ينجو منه خالفه، وقد خالف وجدي يوما فانبرى ليستخدم معه الأساليب القبيحة التي درج وتعود عليها، لكنه رجع واعترف أن وجدي بما تحلى به من الأدب والموضوعية جعله في موقف محرج واستحياء أن يناله بسوء.

أروع ما في وجدي ومن أجل سماته شيئان الأول منهما، هو تشجيعه وتحميسه للموهوبين من الشباب الذي كان يفسح لهم المساحات فيما يشرف عليه من المجلات فينشر لهم ويجعل أسماءهم مع أسماء الكبار دفعا لهم لمزيد من الابداع.

الأمر الثاني.. هذه السماحة المذهلة في الترحيب بالرأي المخالف، فرغم كونه رئيسا للتحرير لم يكن أبدا يقف أمام رأي أو مقال لكاتب أو محرر يخالف رأيه ونظرته، فما أسماه وأجله رحمه الله.. ولا يسعني في النهاية مع دهشتي واستغرابي إلا أن أوجه شكري وامتناني للأهرام أن ذكرت الجماهير بعلم من أعلام الإسلام وحارس من حراسه الأشاوس.

الانتقام من الجماجم

نقل النبأ صورة جمجمة من متحف الإنسان في فرنسا مكتوب عليها: (ترجع لأحد قادة القاهرة الذي كان شريكًا في جريمة اغتيال الجنرال كليبر، تم التبرع بها من قبل البارون لاري.) تعود الجمجمة لطالب مصري عمره ١٥ سنة كان قد ساعد الطالب السوري سليمان الحلبي على اغتيال قائد الحملة الفرنسية على مصر الجنرال كليبر عام ١٨٠٠ بعد الاغتيال قبض الجيش الفرنسي على سليمان الحلبي و ٩ من معاونيه وكانوا وقتها طلابا في الأزهر الشريف و قاموا بإحراق أيديهم ثم صلبهم أحياء على الخوازيق في منطقة تل العقارب بالقاهرة .. و بعد موتهم تم أخذ جماجمهم و إرسالها إلى فرنسا لتعرض في متحف الإنسان! هذه صورة إن عبرت عن شيء فإنها تعبر في المقام الأول عن بشاعة فرنسا والوحشية التي امتلأت بها قلوب جنودهم، ويظل متحف الإنسان وصمة عار في جبين هذه الأمة المتوحشة التي احتلت البلاد ونكلت بالعباد.

إن العبث بالجماجم، متعة تشفي غليل المنتقمين وتبرد نارهم، وهي دوما من فعال البرابرة والمشركين ولا تكون أبدا من قوم يعلمون أن الله كرم الإنسان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم علم المسلمين أن إذا قتلوا أن يحسنوا القتلة، وها هو الله سبحانه وتعالى قد أرسل النحل يحوم حول رأس عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، المعروف في التاريخ الإسلامي بحمي الدبر، أي النحل، لحمايته من نذر المُشركين بقطع

رأسه لشرب الخمر فيه، فقال: اللهم إني أحمي دينك فاحمي جسدي ولحمي من المشركين.

في عام ٨١١ ميلادية وقعت معركة بين قوات الإمبراطورية البيزنطية، بقيادة الإمبراطور نقفور الأول، والبلغار، بقيادة خان البلغار كرم(KUM)، في ممر بليسكا وانتصر البلغار انتصارًا ساحقًا وقُتل الإمبراطور نقفور الأول في المعركة، وتقول الأسطورة التاريخية تقول إن خان كرم أمر بفصل رأس الإمبراطور نقفور عن جسده، ثم قام بتجريد الجمجمة من لحمها وتغليفها بالفضة، وتحويلها إلى كأس شراب ليستخدمها في الاحتفالات والولائم كرمز لنصره الساحق على الإمبراطورية البيزنطية.

وفي بعض الثقافات القديمة، كان تحويل جمجمة الخصم إلى كأس شرب يعتبر رمزًا للقوة، حيث يتم امتصاص قوة العدو أو شجاعته بطريقة طقسية.

كما ذكرت السجلات الصينية القديمة هذه الممارسة بين قبائل شيُونغنو (أسلاف الهون المحتملين).في عام ٢٠١ قبل الميلاد، قُتل ملك اليوي تشي على يد ملك الشيُونغنو، ماودو تشانيو ويقال إن ماودو حول جمجمة الملك المقتول إلى إناء للشرب، يعود أقدم سجل صيني لتقليد القحف إلى حوالي عام ٤٥٣ قبل الميلاد، عندما قام المنتصرون في معركة جينيانغ بصنع كوب نبيذ من جمجمة عدوهم.

وكذلك فعلت قبائل السكيثيين حيث كانوا يقطعون رؤوس أعدائهم، وينظفون الجماجم، ثم يغلفونها بالجلد لاستخدامها كأكواب، وأنهم كانوا يفخرون بالاحتفاظ بجماجم أكثر الأعداء كأدلة على قوتهم وشجاعتهم، الفكرة إذن تقليد تاريخي يرمز للانتصار لدى كثير من الأمم.

وإذا كنا ندين مثل هذا الفعل النكر، فقد قرأت في تاريخنا للأسف ما يشبهه، فهل مما يدل على حقد عنيف وعداوة غريبة الشكل

كان أحمد بن نصر الخزاعي ممن تعرضوا لفتنة القول بخلق القرآن فأرسل الواثق في طلبه، فحمل إليه، ولم مثل عنده نوقش فقالت أحد المعتزلة هو حلال الدم، وقال أخر: اسقني دمه، وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب، ثم ضربت رقبته، وحز رأسه، وطعنه الواثق بطرف الصمصامة في بطنه، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها وأقيم عليه الحرس، وكتب في أذنه رقعة: هذا رأس الكافر، المشرك الضال، ولم يزل مصلوبا ست سنين، ثم حط وجمع بين رأسه وبدنه، ودفن بالجانب الشرقي من بغداد.

ست سنوات كاملة تصل جمجمته! فأي غل كان هذا وأي جريمة جناها، وكيف يكون كافرا وهو من العلماء الموحدين.

أساتذة الجامعة أين إنجازكم؟

الأستاذ الجامعي يعني العلم والثقافة والبحث والإبداع، لكننا في أروقة الجامعات نجد كثيرا من الأساتذة من توقف عطاؤهم الفكري مع نيل الدكتوراه، وحينما قدر له تدريس الطلبة في المدرجات، يسارع ليستل بعض الصفحات من رسالته، ليجعل منها كتابا يدرسه للطلاب، ويظل على هذا الحال سنينا طويلة، دون أن يدفعه العزم للجديد والمفيد في عالم البحث.

كان يدرس لنا أساتذة كبار في السن، ولم يكن لأحدهم إلا كتاب واحد أو كتابين، وأنا لا أعرف أين يذهب عمر هؤلاء الناس وفي أي شيء يقضون أوقاتهم، إن لم تكن في سبيل العلم والبحث.

بل أذكر دكتورًا من كلية اللغة العربية، قد انتدب إلينا في قسم الدعوة لتدريس مادة الأدب، ظللنا عاما كاملا مع الرجل، يسير بنا يمينا ويسارا، معتمدا على بعض الخواطر التي كنا كثيرًا ما نفقد التركيز معه فيها، هكذا مجرد حوارات وسجالات، وكلف أحد الطلبة أن يكتب وراءه ما يدور، ليعطيه في نهاية العام مذكرة صغيرة تفوق الثلاثين صفحة، يضع منها الامتحان للطلاب.!

وظللت أتساءل: أين كتب الرجل وأبحاثه وإنتاجه؟

أين إبداعه وحصيلته العلمية التي ترسخ في أذهاننا معنى احترامه وتقديره، أين علمه وجهده الذي يضعه في مكانته اللائقة؟

لا شيء.. فما كان يفعله القمة في الهراء والاستخفاف.

إن حصول بعضهم على الدكتوراه، قد نظن معها أنها البداية والانطلاقة التي يولد بعدها عالم فحل وباحث ضخم، ولكنها للأسف تكون النهاية والختام لرحلة العلم، التي يعلن معها عجزه عن العطاء الفكري والعلمي والبحثي.

بل المثير في الأمر أن يبلغ أحدهم درجة العمادة وهو مفلس علميا، فقير بحثيا، يئن منه ذلك الكرسي الذي جلس عليه والمنصب الذي تقلد مهامه.

لقد كان شيخنا الدكتور النبوي شعلان، يقص علي أنه قضى حياته ووقته للكتب ووهب أيامه للقراءة، حقق أمهات الكتب التي حفرت اسمه في سجل الكبار، بينما كان كثير من أقرانه يلهثون وراء المناصب ويداهنون ويتملقون سعيا للدرجات الوظيفية، إلى أن قال: من الذي بقي الآن؟ العلم أم الوظيفة والمناصب؟

وفعلا من الذي بقي وظل اسمه يتردد في ميادين العلم؟ لقد انطفأ ذكر الآخرين، بينما ظل اسم النبوي شعلان على يتردد في سمع الزمان.. لأنه عرف الطريق الصائب ولزم جادته.

وعلى هذا كثير من ذوي المناصب، تمتعوا بها أيامًا ثم زالت فكأنها لا كانت ولا كانوا.. لكن الكتاب القيم الذي صنعته بجهدك ويحمل غلافه اسمك، هو الجائزة الكبرى للبقاء في سجل الخالدين.

وكم أدهش حينما أرى جيوشًا من الأكاديميين، الذين قضوا أعمارهم بين أروقة الجامعة، ويحملون لقب دكتور، ثم رحلوا عن الحياة وهم لا شيء، ولا يبقى من آثارهم أي شيء.

وفي هذا المقام لعلي أتذكر أستاذي الدكتور أحمد شاهين الذي درس لي في كلية أصول الدين، وأنشر صورته مصحوبة مع هذا المقال وهو يحمل أسفاره التي صنفها إلى اليوم من ساعة نيله للدكتوراه، فخورا بما صنع، سعيدا بما تحمل يديه وكأنها تحمل أبناءه، لقد عهدته منذ بداياته دؤوبًا على البحث والقراءة والاطلاع والكتابة، يدرك غايته، ويعرف رسالته، ولا يتوانى في تطوير نفسه والارتقاء بقدراته، وما هاتفته مرة إلا ووجدت لديه مشروعًا علميًا بحثيًا جديدًا يفيد به طلابه وتخصصه، ومن قبل هذا يفيد به دينه ودعوته، ولعله قد فاق بهذه الهمة أنداده من المدرسين بكلية أصول الدين، التي تفخر بهذا النموذج المشرف، وحينما أتداول سيرة الجامعة وأساتذتها لا أجد إلا صراعات على المناصب وتسابق نحو الفوز بالمقاعد، ولو أنهم ركزوا اهتمامهم بالعلم وحده وتسابقوا فيه، لكان هذا أليق بهم وبمكانتهم، بل يكون هذا هو الأبقى لسيرتهم وجهودهم التي يخلدها تاريخ العلم والبحث.

أقلام لا تقبل المساومة

هل يمكن لي يوما أن أؤلف كتابا وأهديه إلى ذي سلطان أو جاه لأنال رضاه، أو أن أجعله وسيلة وسبيلا إلى نظرة من عطفه وجوده؟

إن ذلك لو حدث، فإنني لا شك أفقد احترامي لنفسي وأفرط في قيمتي وأهين علمي الذي تعلمته، بل أنظر لهذه اليد التي كتبت هذا التزلف الرخيص لأراها وقد اقترفت أبشع الذنوب، واجترت على ذاتها وصمة عارا لا يمحوها الزمان ولا تنساها الأيام.

فالعلم قرين العزة، وإذا فرط الكاتب أو المصنف في عزته وكرامته، فما أرخصه وأحقره.

لقد رأيت يوما عالما أزهريا معمما ومن التناقض العجيب أن اسمه مشتق من الكرامة، رأيته يوما يقول بملء فيه: أنا من علماء السلطة، وكان حزينا غاية الحزن أن تم تهميشه وعدم الالتفات إليه.

وهو لا يعلم أن حالة الرخص التي تشبثت به، هي ما جعلته رخيصا – هلفوتا– في أعين من يطلب ودهم.

ولو أنه اعتز بنفسه وعلمه، لهرول الجميع إليه، ولكنه أهان نفسه قبل أن يهينه غيره.

ومثل هذا لو طلب منه او عرف أن كتابة الكتب في السادة والكبراء تقربه منهم، لكتب فيهم المجلدات الضخام، مسبحا بحمدهم، طالبا قربهم منافقا لهم.. لأنه لا يحترم علمه أو ينزه قلمه، فهو من عبيد الدنيا وليس من أحرارها.

في تراثنا الأبي قرأت أن الإمام النسائي خرج إلى الشام وفي نيته رد ما غالى من أهلها على أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- فلما وصل إلى الرملة بفلسطين، عقد مجلسًا للتحديث بجامعها الكبير، وأخذ في رواية الأحاديث في فضل علي -رضي الله عنه- وآل البيت وفضل الصحابة، وكانت بلاد الشام معقل الأسرة الأموية وقاعدة ملك بني أمية، فلما أخذ النسائي في رواية أحاديث فضل الصحابة، طلبوا منه أن يروي حديثًا في فضل معاوية -رضي الله عنه-، فامتنع النسائي من ذلك؛ لأنه وبمنتهى البساطة لم يخرّج حديثًا في فضل معاوية، ومروياته كلها ليس فيها حديث واحد في ذلك، فألحوا عليه، فرفض بشدة، فألحوا عليه أكثر وشتموه، فرد عليهم بكلام شديد أحفظهم، إذ قال لهم:" أي شيء أخرج؟ حديث اللهم: لا تشبع بطنه"، وهو حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه وكذلك أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ولكن ليس للنسائي سند في مروياته ليخرجه به ويحدثه للناس.

ولأن الجهل والتعصب يعمي البصائر، ويسوّد النفوس، فقد اعتبر الجهلة والمتعصبة لبني أمية أن النسائي شيعياً رافضياً، فسبوه وشتموه، وقاموا بجره من رجليه لخارج المسجد، وكان شيخاً كبيراً جاوز الثمانين،فلم يحتمل مثل هذه الإهانة الجسدية والنفسية، ومما زاد الطين بلة، أن قام بعضهم بضربه في خصيته ضربة مميتة، فحُمل الإمام مريضاً مدنفاً، ومات من أثر الاعتداء عليه، وختم حياته بصيانة علمه وأحاديثه، وعده كثير من أهل العلم من الشهداء.

فهل رأى صاحبنا قصة الإمام النسائي ليتعظ بها ويحاكيه ويتعلم منه عزة العالم، واحترام العلم، أن أم النفاق صار مرضا في النفوس، لا يجدي أمامه توقير لدين أو ضمير.؟

كان حكام المسلمين في الأندلس يشجعون العلماء على التأليف والتصنيف، ويرصدون لهم الأموال الطائلة، وكان العلماء يتسابقون في هذا المسار ويهدون كتبهم للملوك والرؤساء، طلبا للقرب والمال، ومع هذا وجد مؤلفون لم يتصلوا بصاحب سلطة ورفضوا أن يضيفوا اسمه في مؤلفاتهم وأصرُّوا على أن علمهم خالصٌ لله تعالى؛ ومن هؤلاء العالم اللغوي ابن التياني (ت٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) صاحب كتاب "تلقيح العين" والذي حينما علم به الأمير أبوالجيش مجاهد العامري أمير مرسية، أرسل إليه ألف دينار وكسوة فاخرة، على أن يهدي الكتاب إليه وذلك بإضافة عبارة «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش » لكنه رفض بشدة، فكان أن زاد ابن التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس، ونقل الحميدي عنه أنه قال بهذه المناسبة: «والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب؛ فإني لم أجمعه له خاصة، ولكن لكل طالب علم عامة فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها»

فلله دره ما أسماه وأجله وأعزه وأحكمه، لم يتزلف بعلمه أو ينافق بقلمه، لأنه كان يعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

منذ أيام كتب صديقنا النابه عبد الهادي عباس مقالا ضافيا في أخبار اليوم عن الأستاذ العقاد وأبان فيه صفحة من إبائه وسموه واعتزازه بعلمه وقلمه وأدبه، من أن يساومه أحد عليه، فيغريه بمال أو مكانة.

فليس العقاد ممن ترخص نفوسهم، او تزل كرامتهم، فيفرطون في مبادئهم، واعتزازهم بكبرياء أقلامهم.

نقل صديقنا ما ذكره الأستاذ «أنيس منصور» فى كتابه الشهير عن صالون العقاد كانت لنا أيام أن اليهود مارسوا ألاعيبهم مع الأستاذ وعرضوا عليه أن يكتب عن (عبقرية الكليم) أو عن (موسى بن ميمون)، وأنهم سيوفرون له مئات المراجع اللازمة، وسيترجمون الكتاب إلى عشرات اللغات الأخرى؛ ولكن العملاق رفض هذه المساومات وفطن إلى ما وراءها من تكتلات ومخاتلات صهيونية لاستقطاب الكتّاب وإرهابهم وتشويه صورتهم، مثلما فعلوا مع «فرويد» رغم أنه ربيبهم وابن جلدتهم، وغيره من أولئك الذين فكّروا أن يُخالفوهم، ولو فى بعض الرأي!

وهو نفس ما تكرر حينما ارسل إليه القصر رسولا وهو هيكل باشا يعرض عليه او يؤلف كتابا يمدح فيه الملك فؤاد مقابل ٤٠٠٠ جنيه

فكان جواب العقاد : إذا ألفت كتابا عن الملك فؤاد فلابد أن أقول إنه كان عدو الدستور.. فسكت الوسيط عن نعم ولا ، وعاد ليبلغ السراي جواب العقاد.

والعقاد لم يكن من الأغنياء حتى يعززه الغنى أمام هذا المال الفتان، بل كان من أفقر الأدباء وأكثرهم حاجة، لكن الكرامة والمبادئ عنده لا تقبل المساومة.

ورحم الله هذا الطود الشامخ الذي قال يوما:

"أجمل ما في الحياة يوم تملك فيه نفسك، فتعلم أنك ملكت الثروة التي لا يُقاس بها ملك المال، ولا ملك اللذة، ولا ملك الثناء."

ارفع يدك عن طه

أعترف أننا نصدم كثيرا من الناس وخاصة بعض المثقفين ونحن نتحدث عن الدكتور طه حسين ومخلفاته الفكرية، وصداماته الدينية، ومخالفاته الإسلامية.. بل يتحول هذا الخلاف والجدال، أحيانا إلى خصومة عنيفة وعداء ظاهر، قد يرميك صاحبها يوما بالجهل والرجعية والتشدد أحيانا.

والحق أن مرجع هذا الخلاف يعود إلى سبب جوهري، ونقطة لم يلتفت إليها كثير من الناظرين وهي، أن أغلب المدافعين عن طه حسين، من عشاق الثقافة الأدبية، قرؤوا له وعاينوا أدبه وعشقوا أبحاثه، وبانت لهم روعته الأدبية، وضلاعته اللغوية، فصار في أعينهم عظيما لأنه ساد وبرع في ميدانهم الذي عشقوه من أجله.

ومن ثم إذا رؤوا أحدا ينتقده، فإنهم لا يستوعبون ولا يفهمون، بل لا يخطر في بالهم أن هذا العملاق يمكن أن يخالف الفكر الديني في شيء، أو يعرض لثوابت دينه بالافتراء يوما، وعليه تقوم أمامك معارضة شديدة، تتعجب منها وتضرب كفا على كف، حينما يكون الدليل واضحا والإدانة بينة زاهية، ومن أقوال صاحبها، ثم يعترضون عليك.

لقد قال لي أحدهم يوما: ارفع يدك عن طه حسين، فلما تبينت حاله، علمت أنه خريج دار العلوم، وأن العصبية وحدها للغة والأدب هي من جعلته يقول هذا.

وقال غيره لي يوما: مهما فعلت وفعل أمثالك، فلن تستطيعوا أن تهدموا طه حسين، وسيظل قيمة وقامة عبر الزمان والأيام.. والحق أنني لم تخالجني فكرة هدم الرجل، ولم يكن في نيتي هذا، فقط أردت أن أنتصر للحق وحده، وأظهر الخطأ حتى لا تعمده العقول وتؤمن به.

وهنا يتكشف لنا خيبة من يدافعون عن طه حسين، والتي تتمثل في ضعفهم الثقافي الفكري وخاصة الديني، مع تضلعهم وتفوقهم الأدبي، لقد جهلوا أن للرجل وجهتين، إحداهما أدبية وأخرى فكرية، وكل منهما له رجاله ورونقه ووجهته، فإذا تحدثت عن طه حسين المفكر، فلا تقحم الأدب في الموضوع، وإذا تحدثت عن طه الأديب، فلا تقحم الفكر في الموضوع، يجب الفصل التام بين الأمرين، حتى نعي ونفهم ما يدار.

كثير من محبي أدب طه حسين، مولعون بالأدب وحده، ومقصرون في الثقافة الإسلامية، ومن هنا يحدث اللبس والتصادم.
ولو أنهم درسوا وقرؤوا وتعمقوا، لفهموا وأدركوا هذا الفارق.

نختلف معه فكريا لكننا نقدر عبقريته الأدبية، ونتوافق معه أدبيا، لكننا لا نناصره في كثير من أفكاره.

إن بعض الناس ممن بهرهم أدبه، يأخذون كتاباته الدينية وكأنها وحي بعد كتاب الله، وأحدهم لا يستطيع أن يستوعب، أن يقوم هذا الأديب بغرض في كتاباته، وهو في نظره ذلك الأديب الكبير، الذي كتب في السيرة النبوية، وكتب عن الصحابة والرسول وقيام الإسلام، فما أبرعه وما أثمر أدبه وأجمله.

أما ما فيه من مخالفات وأكاذيب وترهات، فهي لا تعنيه لأنه لا يطلب فكرا بقدر ما يطلب أدبا، وللأسف حينما يحاول أن يجنح للفكر يوما، نرى هذه الأكاذيب والشبهات قد تلبست به من حيث لا يدري وكأنها العلم الأصيل والحق الساطع المضيء. فتراه يرددها عن ثبات ويقين.

وهي ذات المشكلة التي كنت أجدها من والدي -رحمه الله- ومن فرط إعجابه بطه حسين والعقاد، لم يكن يستطيع أن يدرك، أن مثل طه حسين يمكن أن يكتب ما يشين أو يخالف الدين، فهو في نظره أديب الأدباء، ويوما ما كنت أقرأ له من كتاب فقه السيرة للبوطي -رحمه الله- ، وفي مقدمة الكتاب، كان البوطي ينتقد اللفتة الإنسانية التي سار عليها

بعض الكتاب في حديثهم عن الرسول كالعقاد في كتابه عبقرية محمد، وإن كان لم يشر إليه ويقول البوطي: "إن محمدا -صلى الله عليه وسلم- نبي وهذه النبوة جعلته يرتقي ويتميز ويختلف عن البشر، وحينما نقومه، نقومه بالنبوة لا بالإنسانية.

فما كان من والدي إلا أن أشاح بيده وقال: "ايه جاب الكلام الفارغ ده للعقاد.

وهكذا سقطت الحجج والدلائل أمام الاسم في وعيه، سقط العلم ولم يجد مكانا يأوي إليه في مداركه، لأن هواه الأدبي، رفع العقاد للصدارة التي لا تقبل النقد.

ولعلي أقول الآن: ما أكثر ما يجني الأدب على ثقافتنا الدينية، حينما يكون ذريعة المدافعين عن أدباء أخطأوا في حق دينهم.

ولو أنهم أعطوا للدين نصف ما أعطوا للأدب لتكشفت لهم دروب الحق والحقيقة.

احذر أن يخدعك القلم

خطيئة كبرى وظلم فادح أن تحكم على كثير من الكتاب من أقلامهم، وتعتقد أن القلم قدم لك شخوصهم على طبق من ذهب، فصاروا أمامك كتابا مفتوحا، وإن هناك كاتبا إذا قرأت له وجدته فخم العبارة، جزل البلاغة، هائل البيان، وقد قدر لي ان اطلع على حاله، فإذا هناك بون شاسع بين ما ينطق به القلم، وبين نفس صاحبي.. ألا فلتعلم ان هناك عزلة تامة بين عالم القلم ونوازعه وأشواقه، وبين طبيعة تلك النفس التي تجول بين جنبي الكاتب.

إن الكاتب يمكن ان يكون تماما كالشاعر الذي وصف الله نوعه بأنهم في كل واد يهيمون، وقد اكون شر الناس، ويقوم قلمي باكبر عملية خداع في حيلتك حينما يصور لك انني أروع الناس.

ومن قديم كتبت مقالا احذر فيه من خطورة السيرة الذاتية التي يكتبها كثيرون عن حياتهم وأيامهم.

إن احدهم يكون طاغية ديكتاتورا، ثم يخدعك قلمه بانه اسما وأعظم من شهدت الأرض، كل يحاول تجميل نفسه وتحلية ذاته، كلهم يتذكرون جميل الخصال وينكرون خبيث الفعال.

كنت كثيرا ما اكتب شيئا فيعترض المعترض ويؤيد المؤيد، وفي غمرة الاخذ والرد، تظهر انفعالات وغضبات، لتكون في نظر السطحيين هي الانطباع الازلي عني، لقد تبينوا حقيقتي من سطوري، وما دروا ان اتباع السطور احيانا هو السراب المكذوب الذي لا يدل على الحقيقة.

إن كل إنسان في أمة المثقفين يعرف أن الاستاذ العقاد هو آية الغرور والكبر والعجب والغطرسة، والحق أن هذه الصورة هي نبع مما ذكرنا عن خديعة القلم، وأن القلم له عالمه الخاص الذي يوهمك بغير الحقيقة أحيانا، تلك الحقيقة التي تقر بأن العقاد كان آية في التواضع وخفض الجناح.!

يقول العقاد عن نفسه فى كتابه «أنا»: «أقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد رجل مفرط فى التواضع، ورجل مفرط فى الرحمة واللين، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة، ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحا من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعا، هذا الرجل هو نقيض ذلك، ولا أقول: إن هذا الرجل هو عباس العقاد بالضبط والتحقيق، ولكنى أريد أن أقول إنهم لو وصفوه بهذه الصفة لكانوا أقرب جدا إلى الصواب، ولأمكننى أن أعرفه من وصفه إذا التقيت به هنا أو هناك، خلافا لذلك الرجل المجهول الذى لا أعرفه».

وللعقاد ان يقسم ماشاء ان يقسم، فإن كثيرا من الناس لا يرون انفسهم وهي تضج بصفات ينكرها الناس، ويلحظونها فيهم بقوة.

يقول الدكتور رشيد العناني:

"في مفكرتي لعام ١٩٦٦ وجدت هذا المدخل في شهر يناير (كانون الثاني): «تحدثت إلى زوجة البوّاب. سألتها عن الأستاذ العقاد فقالت إنه كان كريماً للغاية وإن خيره كان يغرق المحتاجين وإنه كان يوزع الأموال الكثيرة على الفقراء وكان يكسي أولادها في العيد وقالت إنها مريضة لا تجد علاجاً منذ مات. قلت لها يقولون إنه كان متكبراً. قالت؛ كذب! كان متواضعاً لكن لا يهمه أحد. يقول للأعور أنت أعور ولا فرق عنده بين ابن بواب وابن وزير. وإنه كان ينادي ابنتها الطفلة فيجالسها ويلاطفها."

لقد كانت هذه شهادة زوجة البواب في العقاد المظلوم، وهي شهادة عظيمة تحمل من معاني الرقة والحنان والشفقة ما يستحيل ابدا أن تنعت صاحبها بأنه المكتبر المتغطرس، ولو ان المرأة قد لمست شيئا من ذلك الادعاء يوما، لقالت أحيانا يكون متكبرا، لكن امراة طيبة على الفطرة، يكون هذا ردها السريع حينما سمعت بمثل تلك الشبهة لتقول:(كذب) فإنه رد يعني الكثير والكثير.

ولنترك زوجة بواب العمارة، لننظر إلى البواب نفسه الذي يعيش مع العقاد منذ عام ١٩٢٤ حيث يقول: لقد سألني العقاد مرة عن رأيي فيه

وقلت استغفر الله أنا مين.. فقال: أنت صديق.. وعندما علم أنني اقرأ الجرائد أحيانا قدم لي كتاب «الله».

ما هذا التواضع؟

من من سكان العمائر من يقول للبواب: أنت صديق؟ هل وردت عن طه حسين او هيكل باشا او كثيرا من خصومه الذين اتهموه بهذه الفرى. ثم يهديه كتابا أعيا المثقفين من المؤيدين والمعارضين؟ اي انه يرى البواب كبيرا ويرى عقله كبيرا يستوعب معاني الكتاب.

أرأيت كيف أعطيتك نموذجا على خديعة القلم، تجاه إنسان كان اكثر الناس رقة وتواضعا؟

المحتويات

مقدمة..... ٣

اتهام بالسرقة..... ٦

الأدب والفن في مواجهة الفقر ٨

الأديب الإنسان ١٠

الأب والأم والشيطان..... ١٤

رب ضارة نافعة ١٦

جحود التلاميذ ١٩

أهلها أهل شر ٢٢
شكسبير عدو اليهود ٢٦
اعتذار إلى الرافعي ٣٠
ما أنا.. لا.. من أنا ٣٦
ليس لكم فيه حق..... ٤٢
بنت الشاطئ تتهم مصر بالفشل..... ٤٦
اعتراض المنابر..... ٤٩
مغفلون حتى يأذن الله..... ٥٤
جريمة الحديث عن النساء ٥٧
ما أنا.. لا.. من أنا ٦١
لك يوم يا ظالم..... ٦٧
لا تمنعونا من واجبنا ٧٣
لا تطالبوني بالمراجع ٧٦
لا تخوضوا في غير ميدانكم ٨٠
كلب الست..... ٨٥
عميد وفنان..... ٨٩
على بعد متر ٩٢
صلاح فضل سارق التراث ٩٤
صالونات تبيع الوهم؟ ٩٧
صالون أدبي يتآمر على اللغة العربية..... ١٠١
صافيناز والحشرات الزاحفة..... ١٠٣

خواطر الشعراوي تحزنني ١٠٨
شوقي ليس بطلا ١١٠
شوقي رضي الله عنه ١١٢
حروفي لا تعبر عني ١١٦
شكرًا عادل زعيتر ١١٩
الرجل الذي أحيا التراث المفقود ١٢٢
الأضابير ١٢٦
أفورة وطنية ١٣١
الانتقام من العربية ١٣٥
التجني الأدبي ١٣٨
آهٍ من أبناء العلماء ١٤٤
إنهم يجهلون التاريخ الأدبي ١٤٨
الدعارة الأدبية ١٥١
الرافعي أديب الوطنية الصادق ١٥٤
العنوان أكبر خدعة ١٥٧
اللحية شعار المحمديين ١٦٠
الكتاب المجهول ١٦٤
جلافة العباقرة ١٦٩
هل كانت بنت الشاطئ تغار؟ ١٧٢
سلطان الدين وسلطان الفن ١٧٨
دعني أقبل يديك ١٨٢

الكاتب الخمورجي ١٨٦
الحمد لله.. ما أحببتها يوما ١٨٩
الغرام في اللحظات الأخيرة ١٩٣
الثقافة والسلطان ١٩٧
الباشوية والطعمية ٢٠٠
الأهرام تفاجئنا ٢٠٣
الانتقام من الجماجم ٢٠٦
أساتذة الجامعة أين إنجازكم؟ ٢٠٩
أقلام لا تقبل المساومة ٢١٢
ارفع يدك عن طه ٢١٦
احذر أن يخدعك القلم ٢٢٠